2274
.8874
.351

2274.8874.351
Sidqi
Innahu al-hubb

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 072236589

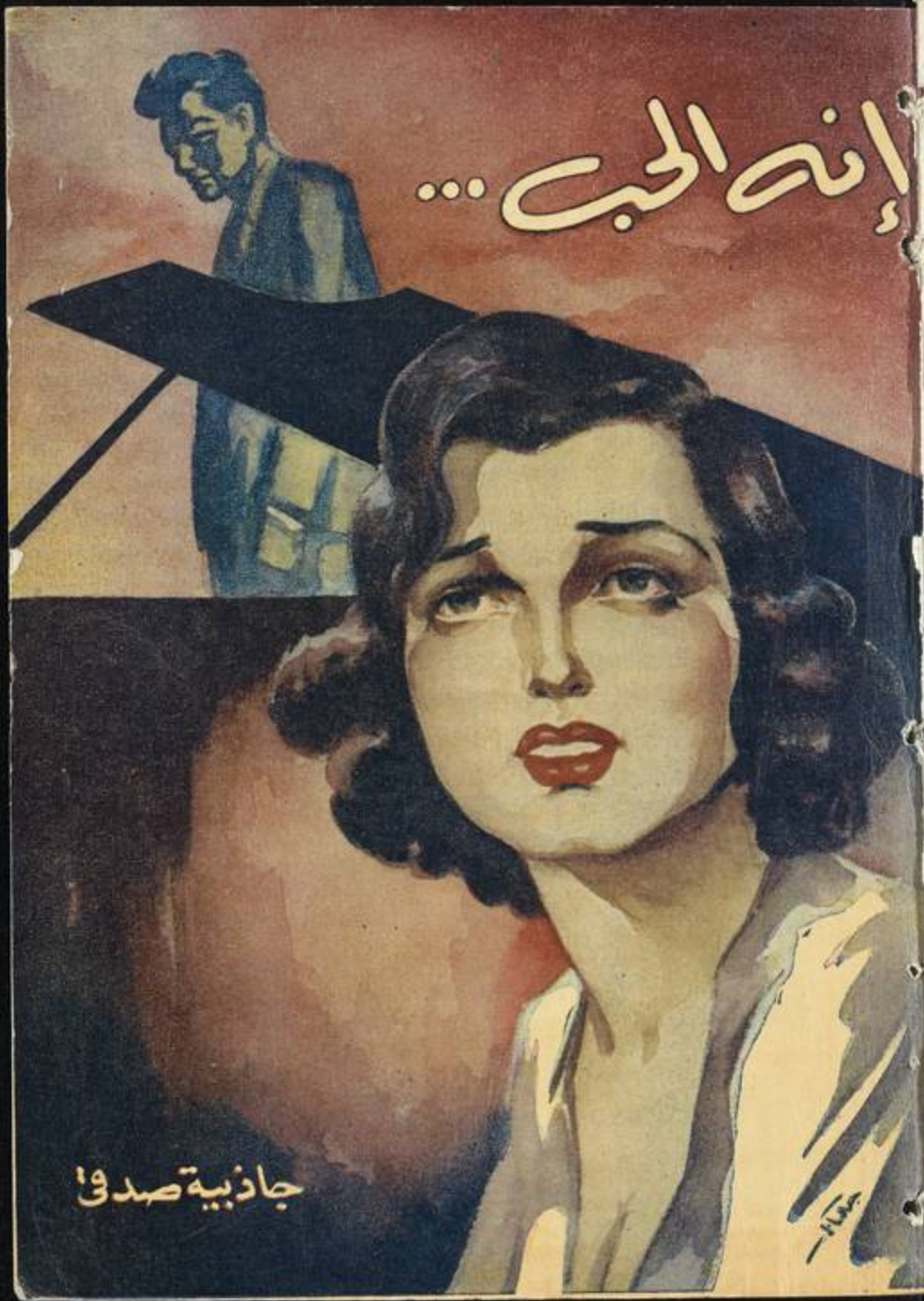
إنه الحب...
جاذبية صدقي

2 pars
A 38.-
408/587

جاذبية صـــدقى

- فى العقد الثالث من العمر .
- زوجة وأم لطفلة فى الخامسة تقول عنها جاذبية انها صديقتها الوحيدة ... وأن ما تطلبه لها من الله هو شىء واحـد : السعادة .
- تخرجت فى كلية البنات الأمريكية ، ولمـا عارضت أمها فى دخولها الجامعة واصلت دراستها فى البيت ... دراسـة أدبية عالية منظمة على أيدى أساتذة الجامعة الأمريكية ، وحفظت القرآن والبلاغة على يد عالم .
- زاولت كتابة القصة القصيرة ، والمتوسطة ، والطويلة ... لكنها بقول النقاد برعت فى القصـة القصيرة الواقعيـة الصادقة فى التصوير والتحليل النفسى .
- تحرص فى كتابتها على اظهار الطابع الشخصى لها ، وتؤثر ذلك على التقليـد والمحاكاة ، وهى بذلك تضع الأساس لابراز شخصـية الكاتبة المصرية بجانب شخصـية الكاتب المصرى .
- أول كتاب طبع لها « ربيب الطيور » وهو قصة مطولة فنية للأطفال قررتها وزارة التربيةوالتعليم لمدارسها الابتدائية.
- اخرجت فى السنة المـاضية باكورة مجموعات قصصهـا « مملكة الله » .
- عالجت كتابة المسرحيات ، مثلت لها الفرقةالمصرية هذا العام أولى مسرحياتها « سكان العمارة » باللغة الدارجة .
- كتبت مقالات وأحاديث اجتماعية نشرتها الصحف والمجلات وأذاعت بعضها من محطات الشرق الأدنى ، والاذاعة المصرية وغيرهما .
- عمرها الأدبى أربع سنوات .. كتبت خلالها خمسة وسبعين قصة قصيرة ، وقصتين طويلتين ، وقصة طويلة باللغـة الانجليزية ، واثنى عشر أغنية عاطفية ، ومسرحيتين .
- هواياتها : الكتابة ، والرسم ، والعزف على الكمان ، والطهو .

الى المستشرق الكبير
الأستاذ الدكتور
"ويدمار"
مع كل تقديري واحترامي
جاذبية صدقي

إنه الحب

وقصص أخرى

Djâdibiya Ṣidqî:
„Innahu al-ḥubbu"
u. a. Erzählungen
Kairo 1955

[illegible]

[illegible]

Ṣidqī, Jādhibīyah

جاذبية صدقي

Innahu al-ḥubb

إنّه الحُب ..

وقصص أخرى

مطابع دار الكتاب العربى بمصر

2274
.8874
.351

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

الطبعة الأولى

١٩٥٥

الإهداء

إليـــه . . .

إلى من أخذ بيدى فى حنان وأبثار لى . . . إلى الحياة

إليـــه . . .

جاذبيّة صدقى

الصور بريشة الفنانين الأساتذة :

رضا

الحسيني فوزي

صلاح الدين

جمال صادق

إنه الحب ..

كانت نهايتها ضربة مذهلة لأهلها ومعارفها . . . صاعقة شلت تفكيرهم ، كمسرحية خاملة . . . فاشلة . . . انتهت فجأة . . . هكذا دون سابق تمهيد . . . نهاية لايستسيغها فهم ولا يقرها منطق .

انتحرت . . .

ماذا حدث ؟ أجنت ؟ أهى لحظة من لحظات اليأس المرة التى تذيب إرادة الإنسان ، وتصهر أعصابه ، ويصم أذنيه صراخ روحه تتلوى . . . تضرب ضلوعه كالحمامة الحبيسة . . . فيفلت منه الزمام وينقض على سجنها يهدمه . . . يسحقه ويفلتها — روحه — حرة طليقة ؟

لم يكن فى حياتها شىء ينقصها . . . قط . . . كانت سعيدة . . . إى والله سعيدة . . . زوجة وأم ، يعبدها زوجها وتعبده هى فى ولديهما . . . تبذل لثلاثتهم ولبيتهم نفسها . . . طيعة ، حانية ، متفانية . ويبذل لها الزوج الكريم من ماله ما يزهدها فى مزيد ، ثم هى عطوف ، خير من تحب : ملهوف وصاحب حاجة . ثم هى أبداً آمنة مطمئنة فى استسلام للدنيا تمخر بها زورق أحلام بحر حياتها الراتبة . . . الهادئة . ماذا حدث ؟ تسائل أهلها للمرة الألف .

وحكايتنا هذه تبدأ بجنازتها . سار الزوج المفجوع منهاراً . . . محطماً . . . يسنده صديقان بل يحملانه حملاً من تحت إبطيه . لم يجد معه عزاء ولا نفعت نصيحة . جعل يتمتم كالمذهول :

« كنت أحبها . . . أحبها . . . أعبدها . . . وكانت تحبني . . . نعم نعم تحبني . . . وكانت سعيدة . . . لم تتمرد يوماً . . . لم تشك يوماً . . . لم . . . » .

وشيئاً فشيئاً خلا السرادق الفخم الذى أقامه أمام قصره تتلألأ فيه ثريات أنيقه تدلت كأنها نجوم حانية تواسيه . كان الرجل من المعزين ينتهز فرصة غفلت عنه العيون ويخز جاره سراً ، ويقومان معاً يشدان مرة ثانية على يد الزوج الكسير ويربتان كتفه بطريقة آلية يتبعانها بـ « شد حيلك » ! ثم يخرجان فى خطى واسعة ليقفا على باب السرادق لحظة ، فرحين بالخلاص ، يملأ كل منهما رئته من هواء الليل المنعش يطرد به الكآبة المطبقة عليها . وينفض رأسه بحركة لا شعورية . . . غريزية . . . كالكلب المبتل كأنما الأحزان قطرات ملموسة تتساقط عنه . وربما شعر أحدهما بالخجل فيفرقع بلسانه متأسفاً يقول فى ظلام الشارع :

— « والله . . . مسكين ! » .

فيهمس زميله فى أذنه :

— « يا أخى . . . كفى نكدا ! هذا حال الدنيا » !

فيوافقه الأول :

— « معك حق ! قسما بالله أنا أكره هذه الواجبات الحزينة كره العمى ! » .

فيفرك زميله كفيه وهما يحثّان الخطو بنشاط فى الشوارع ، يبحثان عن سيارة أجرة :

— « قل لى . . . ما رأيك . . . أين نقضى بقية السهرة ؟ فى مسرح أم . . . « ويخزه فى جنبه غمازاً » . . . أم فى الصالة . . . إياها ؟ » .

وقام آخران . . . ثم آخران . . . انسل الباقون متلصصين . . . تساقطوا عن السرادق كأوراق الشجر فى الخريف . حتى الثريات التى تلألأت أول الليل وتوهج بها الحزن ، شحب نورها تعلن فتوره . وبعضها مافحّت فحيحاً طويلاً حاداً ثم خمدت .

وحل « المعلم » وصبيانه السرادق ، وحملوا الكراسى على العربات ، وحلّوا المخالى عن أعناق البغال واستعدوا للمسير ، والزوج وسط الساحة على كرسيه .

فاقترب منه « المعلم » مطأطىء يؤخر قدماً ويقدم أخرى ، ووقف جنبه يتمصّص شفتيه ويهز رأسه . ويداه على بطنه واحدة فوق الثانية .

أحس الرجل . . . وما شعر . كان فى إطراقه وجموده كأنه نام . . . أو مات .

فتنحنح « المعلم » يقول :

— « حال الدنيا . . . كلنا لها . . . العمر الطويل لك ! »

حينئذ رفع الرجل وجهه بسرعة وقد تدلّى شارباه الأشيبان ، أعلاماً منكسة ، وحملق أمامه لحظة فى تساؤل صامت . ثم دس يده فى جيبه وأخرجها قابضة على عشرات من الأوراق المالية دفع بها إلى « المعلم » دون أن يهتم بعدّها .

وقام يمشى فى تثاقل وجهد كأنما يحمل هو قدميه . . . والدنيا أيضاً . . . على دماغه . وعبر الجنينة المظلمة التى زادها شعوره كآبة ورهبة . وراح يحملق وهو سائر فى طرقاتها ومنعرجاتها ، ويدعو الله فى سره أن يخرج من بينها وينقض عليه . . . أى شىء . . . حيوان مفترس . . . مثلا . . . أو شيطان رجيم . ربما خفف تمزيق جسده حينئذ من آلام روحه .

وفتح له الخادم الزنجى باب البيت وهو ينشج ؛ تنهمر الدموع كحبات الندى على بشرته اللامعة . فتوقف سيده أمامه هنيهة يترنح وقد زم ما بين حاجبيه كأنما يجاهد ليذكر أمراً . . . ثم رفع بجهد يداً ترتعش وأمسك بذراع خادمه الأمين وضغطها ، وشفتاه ترتجفان بشدة ولا تنفرجان . فلما أحاطه الزنجى بذراعيه وأراد أن يعاونه على

الصعود إلى حجرته ، رفض ولوّح له أن دعنى . وألقى بجسده على درابزين السلم يحتضنه ويتشبث به ... وراح يشد نفسه شداً إلى فوق ... درجة . . . درجة . . . درجة . وعلى رأس السلم وقف يلتقط أنفاسه ويشهق بدموعه التى تتزاحم فى حلقه تخنقه . فلما هدأت العاصفة شيئاً ، سار إلى حُجرة ولديه ودفع بابها بخفة . فتدفق نور الدهليز يبدّد الظلام فى الداخل . ومط الرجل عنقه ودفع برأسه فى كل من « الناموسيتين » يطمئن على الصغير النائم داخلها . . . يعدل ذراع هذا . . . ويسحب الغطاء يدثر ذاك . . .

وحاذر فى تلصّصه أن يتعثر فيدوس الكومة السوداء المفترشة الأرض بين السريرين . ثم خرج دون أن يفطن إليه أحد من النائمين . ولا حتى المربية الزنجية العجوز .

وفى حجرته . . . حجرتهما . . . وعلى سريره . . . سريرها . . . ارتمى يخفى وجهه يتشمم رائحتها . ومسح على المخدة بكفه المعروقة الخشنة وهو يبتسم فى حنان ورقة ، وعيناه الذابلتان فى خيال كأنما يمسح على شعرها . . . وحذاؤها . . . وخفها . . . وقميص نومها . . . كلا احتضن . . . وقبّل . . . وبلل بدماء قلبه .

وفجأة اعتدل يتحسس جيب قميصها بعصبية . . . كان هناك شىء . . . نعم . . . نعم هناك شىء . . . هش . . . يخشخش . فدس يده وأخرج . . . رسالة ، أسرع يطبق عليها أصابعه العجاف بقوة كأنما هى شىء حى يخشى أن يطير منه . وهرول يعرج ملهوفاً

إلى صوان ثيابه وراح ينبش بينها وينبش . . . دون وعى . . . حتى وجدها . . . نظارته ذات الإطار المذهب . فزرعها فوق أرنبة أنفه وأضاء تمثالاً دقيقاً مكملاً بحرير سماوى هادئ بجانب السرير الذى تربع فوقه ، ثم بسط الرسالة أمامه يقرأ :

— « زوجى . . . سيدى . . . بل أبى الحنون . نعم . . . دعنى أدعوك أبى . . . لآخر مرة . . . كما كنت أدعوك دائماً أنا وولداك . فكنت تبتسم لندائى بوقارك الحبيب وتمسح شعرى فى حين يتعلق الغلامان برقبتك . فأنهرهما أنا لأنى كنت أشفق عليك من فتوتهما . فتقول لى بحنان :

— « اتركيهما يلهوان . . . لا ضير . وتعالى انت الأخرى هنا على ركبتى ! »

وتروح تقص علينا من النوادر والحكايات وثلاثتنا حولك نضحك — رعاياك . . . أولادك . أذكر أنك كنت تردد وأنت ترمقنى بفخر وإعزاز إذا طرت ألبى طلباً ، أو تشاجرت مع أحد الغلامين وخاصمته . . . فتقول :

— « والله إنك طفلة ما زلت . . . برغم أعوامك الثلاثين . . . لو أننى تزوجت منذ عشرين عاماً لأنجبتك ! »

لكننى كنت سعيدة بك . . . ومعك مرت سنوات زواجنا العشر فى هدوء ودعة وإن اتسمت بالعقل والحكمة . تقبلنى بحساب . . .

دائماً . . . دائماً على جبهتى أو بأكثر تقدير على خدى . وكنت راضية هانئة . . . أنا اليتيمة التى لم تذق حنان الأم ولا عطف الأب .

ومن آيات حدبك اهتمامك بهوايتى الكبرى : الموسيقى . فألحقتنى فى سنى زواجنا الأولى بمعهد أجنبى أروى تعطشى من بحر الأنغام . وكان أستاذى الألمانى العجوز يستمع لى فى إعجاب وأنا جالسة أمامه إلى « البيانو » لا تكاد أناملى تلمسه . . . وروحى . . . وعيناى . . . هناك . . . هناك . . . بعيداً . . . وراء السحب الوردية الشفافة . فلما ولد ابننا الأكبر وتبعه أخوه فى العام الذى يليه شغلت بهما وانقطعت دراستى الموسيقية طوال هذه الأعوام . لكنك يا أبى العطوف قدرت بقلبك الكبير تضحيتى . فاشتريت لى « فونوغرافاً » وأسطوانات . ولكى تدخل السرور والرضا على قلبى كنت تفاجئنى من وقت لآخر بأسطوانة هدية أضيفها فرحة إلى مجموعتى .

وفى هدأة الليل . . . والليل كان دائماً لى منبعاً لإحساسات غريبة تملأ صدرى . . . تقلقنى ولا أفهمها . . فى سكون الليل . . . بعد أن ينام ولداى . . . وأطمئن عليك فى فراشك وأعطيك دواءك وأدثرك جيداً . . . أنسل إلى حجرة الضيوف المترامية فى طرف البيت فأغلقها علىّ وأظل أدير اسطوانة نابضة . . . ملهمة . . . وراء الأخرى . . . وأنا أستمع مرتمية على كرسى فى الظلام . . . مغمضة العينين . . . مفترة شفتاى . . . مرهفة أعصابى . . . فى دنيا من إبداعى .

وهذا العام . . . منذ ثلاثة أشهر . . . فى يوم عيد ميلادى . . . فاجأتنى المفاجأة التى هزت كيانى . . . صدعت حياتى .

جئت لى بمدرس موسيقى يعلمنى فى البيت . فلما ناديتنى يومها لأدخل إليكما فى حجرة الضيوف . . . تسمّرت على عتبة الباب . . . أضم يداً إلى صدرى . . . أضغط قلبى . . . وأمسح بالأخرى على جبهتى وعينى . كان رأسى يدور . . . أصابنى فجأة شبه دوار . . . وتقلّصت معدتى . . . وشعرت بالأرض تغوص تحت قدمى تدعونى إلى أحضانها . ماذا دهانى ؟ أترانى . . . حاملاً . . . مرة ثالثة ؟ لا . . . لا . . . بل كيف ؟ كيف ؟

ومرت ثوان تمالكت فيها وتجرأت ورفعت عينى فى استسلام أحدق فى الشاب الذى أمامى . كان فارعاً . . . ضامر الخصر . . . ثائر الشعر والعينين . فلما تقدم فى خطوات واسعة ومد لى يديه يعاونى ، وضعت كلتا راحتى بين راحتيه وأنا أتنهد من أعماق . . . دقيقة أو نحو ذلك . . . لا يطاوعنى قلبى على سحب يدى منه . . كأنما مكانهما الطبيعى بين قبضتيه .

أما هو فلم يبد عليه شىء بل التفت إليك يناديك لتضع ذراعك حول خصرى وتسندنى حتى الأريكة . واستمعت إليكما تتحدثان عنى بعد ذلك كأنما تتحدثان عن واحدة غريبة لا أعرفها . . . وتتفقان على مواعيد دروسى وأجرها .

وبدأنا يومها أول درس ، حضرت أنت نصفه ثم تركتنا لأن ميعاد دواء كبدك كان قد حل . فلما خرجت قال لى :

« أنت مدهشة يا هانم . . . أنامك من حرير . . . تعيشين بعواطفك فى اللحن وتترجمينه بعزفك الرائع نغماً . . . نغماً . . . » وسرحت نظرته بعيداً « كأنى به أنين أبكم يتألم . . . يحاول أن يصور للناس بعض ما يقاسى . ولكن . . . » ونظر إلىّ بجد يضم حاجبيه مفكراً :

— « ما اسم تلك المقطوعة ؟ لا أعتقد أنى سمعتها من قبل فى حياتى ! » .

فلما قلت له أننى مؤلفتها ، مال ناحيتى وارتكن على ظهر « البيانو » يدعم ذقنه براحته ويطيل النظر إلىّ فى صمت وإعجاب صريح . ثم اعتدل بحيوية المطاط وضرب ركبته فى حركة صبيانية حبيبة إلى النفس وصاح وهو يهز رأسه :

— « عال . . . عال . . والله العظيم عال جداً ! »

فكدت أصرخ . . . أنفجر . . . لقد كنت أختنق . . . تتلاطم فى صدرى أمواج جبارة من مشاعر كثيرة . . . جديدة . . . غريبة علىّ . . . تمزقنى . . . تتنازعنى فى غير رحمة . . . وتتجاذبنى قوة خفية نابعة من أعماق . . . أعماق أعماق . . . أين كانت طوال سنى عمرى ، لست أدرى . فقمت ممغطسة . . . وخرجت من البيت لأول مرة

فى حياتى دون علمك يا زوجى أو صحبتك . . . خرجت أسير وحدى فى الشوارع على غير هدى . . . وأسير . فلما صادفنى ترام ركبته إلى آخر الخط ونزلت فى ضاحية من « القاهرة » لم تطأها قدماى من قبل . . . ورحت أسير . . . وأسير . . . حتى ارتعشت ركبتاى . . . وأسير وأسير . . . حتى تغلب تعب جسمى على ثورة روحى . فرجعت مطأطأة الرأس مخذولة الذراعين .

ومرت الأيام متلاحقة وقد صار درس الموسيقى مساء كل خميس بثمانة قطرة ماء أبلل بها روحى المجدبة .

وقال لى أستاذى ذات يوم أنه سيتقدم بكل ما ألفت إلى الإذاعة لعلّ لحناً أو اثنين يحوزان الإعجاب . لكنه عاد ساخطاً . . . ثائراً علىّ . فقذف دفتر ألحانى على الأرض وصاح بى محتداً فى صوت عال :

— « وددت لو أعرف . . . مالك ؟ ألا تنطقين ؟ أنت غريبة . . . غريبة جداً . . . حزنك هذا المستسلم — لم ؟ » .

ثم أردف بغضب :

— « لقد رفضوا الألحان كلها . . . كلها . . . وأنت السبب . . . أنت ! أتفهمين ؟ » .

وجلس يمسح شعره الثائر بمشطه بأصابعه الطويلة الدقيقة ثم يشده فى ثورة ويقول لى :

— « خذى الحياة بسهولة . . . كما تهفو ناحيتك . . . افتحى قلبك للنور يملأه . . . لم تخافين السعادة ؟ » .

فعضضت شفتى أدفع دموعى . كنت حقاً أخاف . . . السعادة .

وفجأة هب واقفاً وجذبنى من كتفى حيث كنت جالسة على كرسى « البيانو » ، وغرز أصابعه فى لحمى يهزنى بقسوة :

— « أفيقى ... استمعى لى ... أنت موهوبة . . موهوبة لا شك فى ذلك ... لكنك لن تصلى إلى الذروة أبداً .. أبداً . ولن تنتجى لحناً خالداً إلا إذا اهتززت ... استجبت للعوامل من حولك . . فتحى .. أرهفى حواسك ومشاعرك . وسيرى من اليوم متفتحة .. مستعدة لجهاز استقبال كهربائى ... حساس ! أتفهمينى ؟ أتعين قولى ؟ » .

لم أجرؤ على الكلام . وهززت رأسى بالإيجاب وعينى فى عينيه . رباه ... أمجنونة أنا ؟ لقد شعرت تلك اللحظة برغبة غريبة حقاً ... كادت تذهب بلبى وأنا أقاومها . . شعرت برغبة قوية جامحة أن أحس بكفه على خدى ... ولو فى لطمة .

وأردت أن أطبع صورة ذلك الموقف أنقشة فى أعماق ، فأرخيت عينى عن عينيه وأطلقتهما تسيحان فى أرجاء وجهه ، قبلتا جبهته ... وحاجبيه .. ثم انزلقتا إلى خديه ... وراحتا تتأملان حركة أنفه المرهف وهو غاضب ... ثم هوى بصرى على فمه ... واستقر .

... وراحت أناملي تتحسس مفاتيح « البيانو » كما تتحسس القطط العمياء أثداء أمها . .

وزلزلتنى رجفة عندما خامرنى سؤال خبيث : « ترى ... كيف تقبّل شفتان . . كشفيته ؟ » .

أغمضت عينى . . . ورأسى يدور . . . وقلبى يدوى . . . ربّى . . . ربّى . . . ماذا دهانى ؟ أجننت ؟

ودفعنى هو بغضب . فسقطت على مقعدى فى حين اختطف معطفه وأدار لى ظهره وخرج . . . دون سلام .

فجلست حيث تركنى ساعات كثيرة . . . طويلة . . . أحدق أمامى فى . . . لاشىء ، ثم ارتفعت يداى عن حجرى ببطء وراحت أناملى تتحسّس مفاتيح « البيانو » كما تتحسس القطط العمياء أثداء أمها . وفجأة . . . اندلع نور فى وجدانى . . . نار صهرته فذاب ألحاناً حيّة . . . نابضة . . . تسيل من أناملى .

وطلع علىّ الصبح وأنا جالسة على حالى . . . شاحبة . . . أرتجف . . . ولا تكف يداى عن العزف حتى ولد لحن : « القبلة » . لم يوقظنى من أحلامى . . . لا نداء أولادى . . . ولا رنين جرس زوجى . . . ولا توسّلات خدمى . كرهتهم كلهم فجأة . ربّى . . . ربّى ! لم أثور الآن على القيد الذى يربطنى بهم كأنى غريبة عنهم انتزعونى من . . . من « أهلى » الأحق بى ؟

فلما كان المساء جاء أستاذى . . . على غير موعد . جاء يعتذر عن تهوره . . . جرأته ليلة الأمس . يعتذر ؟ ابتسمت . . . بحزن .

لم أثق فى نفسى للكلام . كل ما فعلت أن رحت أعزف لحنى الوليد . . . وأعزفة ، وأستاذى متسمّر وسط الحجرة لا يكاد يتنفس . فما انتهيت حتى هرول إلىّ مضطرباً . . . ملهوفاً . . . يعلو صدره ويهبط . . . وهمس فى صوت مرتعش :

— « بديع . . . رائع . . . ساحق ! » .

واختطف الورقة التى دوّنت عليها أنغامى وسألنى :

— « ماذا سميت لحنك هذا ؟ » .

فلما همست . . . أتكلم بثقل كأننى أحلم :

— « القبلة ! » .

. . . ألقى برأسه إلى الخلف وانفجر ضاحكاً ، ثم رمقنى لحظة سار بعدها نحوى فى حيويته تلك الجياشة وهو يهتف لا يتمالك من الضحك :

— « والله إنك أنت التى تستأهلين . . . قبلة ! » .

وجذبنى إليه وهوى بشفتيه على شفتى .

وعندما أدار لى ظهره وخرج متوثباً . . . خلى البال . . . ومعه لحنى الجديد تحت إبطه . . . لا تسعه الدنيا من الفرح وحلاوة الأمل ، كنت قد حكمت على نفسى بالإعدام .

فلو أننى عشت بعد قبلته يوماً . . . ساعة . . . لحظة . . . لتبعته

إلى أقصى الدنيا . . . زوجة . . . خليلة . . . جارية . . . خادمة . . . كما يريدنى هو .

قد تقول أنت الآن يا زوجى الحنون :

— « هذه الطفلة الغريرة . . . ألهذا انتحرت ؟ ألا تلتظر وترى ما يكون منى ؟ ربما عفوت عنها لا أحاسبها على غلطة غير مقصودة قد أنسبها إلى الطيش . . . أو المناسبة السعيدة التى تمّت فيها . . . أو قد لا أهتم بما حدث خصوصاً وهى تعترف أنه طوال الثلاثة الأشهر لم يغازلها مرة ولم يهتم بها ، إلاّ باعتبارها إحدى تلميذاته النابغات ، ثم هو مشغول القلب بفتاته — ذكرها مرة أمامها ، وسيتزوّجها حتماً ... يوماً ! » .

ولكن لا يا أبى ... لا ... لا ! فالأمر أخطر من ذلك ، فإنه عندما ضمنى إلى صدره وشعرت بذراعيه فتيتين حولى تهصرانى ... وضغط بشفتيه على شفتى المحرومتين ... شعرت لأول مرة بالحياة تدب فى جسدى ... شعرت بتجاوب شبابى وشبابه ... شعرت بفظاعة الجرم الذى ارتكبته طوال حياتى معك ... كنت كالمأجورة أقدم لك خدى ونفسى وقتما اخترت .. أنت .

لا يا أبى ... لا ! لا تهزأ بتلك القبلة الصغيرة ... الخاطفة من شفتيه ، فإنى عشت فيها شبابى ... عمرى ... وكفانى من دنياى تلك اللحظة الوامضة فقد بعثت فىّ ... لأول مرة ... لأول مرة .. شعوراً سمعت به ولم أعرفه قط ... قط ... شعوراً ... خطراً مدمراً : النشوة !

ليالى القمر

. . . تسحرنى . . . تسبينى . . . ينسل شعاعها الفضى إلى شغاف روحى فترق وتشف ، وأشعر بها تنتفض بين أضلعى مترنحة . . . نشوى . فأظل محدقة فى السماء إلى ساحرى حتى تشحب الدنيا حولى ، وتتلاشى معالمها متداخلة ، وتضيع أهمية كل شىء . . . كل شىء . . . إلا القمر !

وذات ليلة متلألئة ، والقرية رافلة فى النعاس ، تسللت إلى الحقول وارتميت متعبدة تحت شجرة جميز حانية ، والسكون حولى مطبق أحصى عليه أنفاسه ، والنسيم هامس ، مداعب فى رقة ، ينفث فى وجهى بين الفينة والفينة نفحات رطبة منعشة كأنما لأستفيق من ربقة السحر . . . والأرض ندية ناعمة كشفاه عذراء تدغدغ ساقىّ المبسوطتين فوقها . . . حرام والله النوم فى ليال كتلك . . . وكل هذا الجمال ؟ لمن ؟ ربّى . . . سبحانك ! ما هذه الروعة ؟ هذا . . . هذا الإعجاز ؟

لم أدر كم مرّ بى من وقت . أكان الفجر ؟ أم قبل الفجر بقليل ؟ ربما ... لست أدرى . كل ما وعيته أنها كانت تبكى عندما لمحتها . كانت تمشى منكسة الرأس فى الطريق الزراعى ، تمسح عينيها بطرف خمارها

ثم تقف ، وترفع وجهها نحـو السماء تصيخ كأنما تنصت لنداء خفى — لحظات تحنى هامتها بعدها وتخطو بتثاقل نحو النهر وهى تـكفكف دمعاً .

تأملتها فى صمت تقترب منى حتى إذا حاذتنى دهشت إذ كانت على رأسها صرة ... شىء غريب ! لقد حسبتها على البعد جرة ستملأها من عذب ماء الفجر ، شأن القرويات النشيطات . دق قلبى بعنف مضطرباً يتململ ، كلب صيد هفت ناحيته ريح صيد . لا بد أن فى الأمر ... قصة ! فاعتدلت فى جلستى أرقبها باهتمام تظلل عينيها بكف فى حركة لا شعورية ، لتركز بصرها وهى تتلفّت متطاولة بعنقها يميناً وشمالاً ، كمن ينتظر على جمر قدوم شخص .

فتنحنحت فجأة — بشدة . فأجفلت كالغزال ودارت على عقبيهـا ، لـكنى لاحقتها بتحيـة الريف وقد تخيلت فى عينيها ذعراً ولمحياها شحـوباً . ستفر حتماً . فصحت من مكانى تحت شجرة الجميز :

— « العافية .. ياصبية ! » .

فتوقفت ، وظهرها نحوى ... هنيهة ... استدارت بعدها ببطء وبسطت قامتها النحيلة ، ثم قفزت القناة الصغيرة التى تفصلنى عنها ، وسارت إلىّ . ولم ترد تحيتى إلا وهى تتخذ لها مجلساً قبالتى وتنزّل صرتها عن رأسها وتضعها جنبها :

— « ألف عافية لبدنك ! » .

فأرتج علىّ . ماذا أقول لها — بعد ؟ تبًّا لى . . . دائماً أندفع هكذا دون ترو ! لم كلمتها ؟ لقد حسبتنى أناديها . . . أوربما لم تجد مفراً من الاستسلام وقد كشفت تسللها — هروبها . ترى ، ممن ؟

لكنها — أكرمها الله — لم تدعنى طويلاً لحيرتى فقد عادت لنحيبها بشكل أقسى أداب قلبى . فحنيت عليها أربت كتفها مواسية :

— « صه . . . صه ! لم كل هذا ؟ كفى . . . كفاك بكاء ! » .

فكأنما مس حنانى جرحاً ، فقد انكفأت الصبية — ولم تكن سنها تزيد عن الخامسة عشرة بحال — انكفأت على حجرى تخفى وجهها بين ركبتى وتنوح وتئن حتى خلت أن قلبها حتماً منفطر .

ذهلت وتسمرت فى جلستى . تململت وأنا أشعر فجأة بضيق محرجة . مالى يا ربى وما لهذا ؟ أف . . . تبا لى . . . ولها . . . وللدنيا جمعاء . . . لقد أفسدت ليلتى . . .

نظرت إلى القمر فوجدته يتوارى مسرعاً خلف غمامة سوداء لست أدرى من أين جاءت وقد كانت السماء كبساط من مخمل منذ لحظات . . . أخذت نفساً عميقاً أستأنس بالنسيم فوجدته قد جمد

مكانه كأنما أمسك بأنفاسه مترقباً يرى ما يكون . . . بسطت كفى أتلمّس الأرض الندية فوخزتنى أشواك لم أشعر بها من قبل . . . ماذا حدث ؟ أيتخلّى عنى أحبائى بهذه السرعة ؟ لم قلبوا لى ظهر المجن . . . أم زالت عن عينى نظارة الجمال السحرية وقد هبطت إلى الأرض وإلى آدميتى بما أصابنى من شعور الضيق والضجر ، فبتّ لا أرى إلاّ السحب ولا أشعر إلاّ بالشوك ؟

— « قولى لى . . . قولى لى حكايتك ياصبية ! » .

فرفعت وجهها المستدير إلىّ وهو غارق فى الدموع محتقن كوردة نضرة غسلها الندى ، وتمتمت بين الشهيق :

— « حكايتى ؟ أنا ؟ سُحَيّ ياعين . . . سُحَيّ ! » .

ومرة أخرى ، دموع ساخنة وزفرات وتنهدات لسعت حرقتها صدرى والفتاة تدفن رأسها بين أحضانى وتدق به صدرى كأنما تطمع أن ينشق ويخفيها عن أعين تطاردها .

فصحت بها وقد تصدّع قلبى من فرط ما أتخمته شفقة :

— « تالله إنك لعاشقة . . . مدنفة . . . ولهى ! » .

فشمرت بذراعيها تنسحبان من حول ساقى ، واعتدلت تصلح من شأنها وقد هدأت بغته :

— « عاشقة ؟ » .

سألتنى وهى تبتسم فى مرارة . ثم مالت نحوى ونار سوداء مندلعة فى أعماق عينيها ، وترجّح الهلالان الذهبيان فى أذنيها وهى تتأودّ بعنقها مؤكدة :

— « عاشقة حلال والله . . . ياستى ! » .

فلم أجب . ماذا أقول ؟ كلٌّ يقول ذلك . . . هكذا الحب . وأردفت الفتاة :

— « عاشقة زوجى — حليلى . . . شقيق روحى ! عاشقة بنتى . . . ضناى . . . حبة عينى ! » .

فزممت ما بين حاجبى وأنا أرقبها عن كثب . مجنونة هى ؟ أم تهرف ؟ ومن يمنعها ؟

وكأنما قرأت أفكارى فقد أجابت عليها :

— « منعنى أهلى . . . لحمى أعز ما لى — الله يسامحهم ! » .

ثم تمصّصت شفتيها وسرحت ببصرها نحو القربة ويدها على خدها تقول نائحة :

— « حبيبتى يا بنتى ! ترى ، عطشانه يا بنتى الآن أنت أم جائعة ؟ »

وارتفعت يدها إلى عينيها بطرف خمارها لتتلقّى الدموع فأسرعت أقبض على يديها وأضغط عليهما فى حجرها .

« اعقلى . . . تحكّمى فى نفسك . فلن يجديك والله البكاء ولو عصرت عينيك لآخر قطرة ! قولى لى حكايتك . . . افتحى لى قلبك . . . فربما استطعت نصحك أو معونتك — أتشفّع لك لدى أهلك . . . ! »

فرمقتنى بنظرة طويلة كأنما تستشف مدى صلاحيتى لثقتها ، ثم سألتنى بريبة :

— « ألا تعرفينها — حكاية بغدادية « بنت العمدة ؟

فهززت رأسى بشدة أننى المعروفة .

فضاقت عيناها وهى تقيسنى بنظرة أخيرة قبل أن تقول :

— أنا بنت كبير قومه فى قرية « الحميدية » . . . و « هو » راعى أغنامنا وبهائمنا ... يتيم ، فقير لا يمتلك إلا الجلباب الذى يستر جسده ، شجانى مزماره فى وحدته تحت النخيل يبثه لواعجه فيحمل النسيم السارى النغمات الحزينة إلى ظلمة « الحريم » فى دوّار أبى .

اضطرب قلبى ، وشغل بالى ، وتوهّجت عواطفى . كنت إذا جلست أتسلّى مع النسوة اللاتى يخبزن لنا ، أحرّق الأرغفة أسهو عنها وأنا ست من تعرف الخبز والعجين . وكنت إذا صببت الماء لأبى ، والتقطت أذنى الظمأى نواح المزمار ، ارتعشت يداى واندلق الإبريق كله على ثيابى وثياب أبى . وعزفت عن الأكل والشرب . ارتويت بخيال من أحببت على البعد وشبعت بغرامه — أتخمت . فتسللت

ذات مغرب إلى الزريبة بعد أن ألقيت فوق ثيابى الغالية جلباباً أسود . ورحت أغرف الفول والذرة من الغرارات فى المخزن وأهيلها فى المزاود لتأكلها البهائم عند عودتها .

ولم ألبث أن سمعته يعود بالأغنام ليبيتها . وكان يقودها كعادته بنغمات مزماره وهى خلفه طيّعة خضوع .

وكانت تلك بداية حبّنا المتأجّج . فقد صدقنى عند ما قلت له إنى مثله يتيمة فقيرة أعمل لأعول نفسى . وطرت فرحاً وأنا أرقب مولد حبه لى فى عينيه . وكان لقانا هكذا دائماً فى الزريبة كل مغرب . فنظل فى مناجاة حتى يجلجل أذان العشاء فأنسل عائدة إلى البيت قبل رجوع أبى فى حين يتسلق هو أحد المزاود الخالية ينام فيه .

وذات يوم ، على حدود القرية ، هاجم الأغنام ذئب ضار . فطاردته كلاب القطيع حتى غابت به عن أنظار « مديح » الذى لم يلبث أن فوجىء بهجوم ذئبة غبراء يبدو أنها كانت مستخفية عن كثب ترقب نجاح الخطة التى وضعتها وإلفها لإبعاد الكلاب . فطاش صواب « مديح » خوفاً على رعيته . فانتضى هراوته وانقض على الذئبة ضرباً ونشبت بين الاثنين معركة رهيبة كان الفوز فى نهايتها لـ«مديح» وإن سالت دماء ذراعيه من خمش أظفار الذئبة . فعاد بالأغنام إلى الزريبة قبل الظهر وعلى كتفه فروة الذئبة بعد أن سلخها عن جثتها .

فاستقبله أهل القرية بالترحاب والإعجاب وغرّدت النسوة يحيينه . فخرجت إلى الحديقة يحف بى الخدم أرى ما هنالك ؛ فما وقع بصر

. . وجدته مرتكناً إلى نخلة عجوز ومزماره بين يديه . . .

« مديح » علىّ وأنا فى أوج بهائى يفسح لى القرويون الطريق ، حتى تسمر مكانه يحدق إلىّ كالمجنون .

فوخزه القوم حوله ينبهونه ، فتقدم إلىّ ولثم يدى المنطاة بطرف خمارى الحريرى ، وتراجع خطوتين متأدباً ورأسه منكس ، ولكن بعد أن لمحت فى عينيه عتاباً ... حزناً عميقاً .

لم أجده مغرب ذلك اليوم فى الزريبة — ولا اليوم الذى تلاه . فكدت أجن وذهبت بى الوساوس كل مذهب . فتسللت وراءه إلى الحقول ذات ليلة قمراء كليلتنا هذه ، ورحت أبحث عنه وأدور حتى وجدته مرتكناً إلى نخلة عجوز ومزماره بين يديه يكاد يحترق من حر ما يبثه . وكان مغمض العينين تسيل الدموع وجداً من بين جفنيه . فارتميت على صدره أجفف خديه بشفتى . . . ألعق القطرات الغالية أضن بواحدة أن تفلت منى . . . أمسح شعره وأضم رأسه بين أحضانى أريحه على كتفى . . . وهو بين يدى ساكن كطفل ضال وجدته أمه .

قال لى إنه سيختفى . . . سيرتحل . . . بعيداً عله ينسى . . . وقلت له إنى سأتبعه جارية أينما يذهب فإنى لن أستطيع العيش دون قلب هو سالبه . . . قال لى : لقد سخرت منى ! وقلت له : بل لقد هويتك.

واحتد نقاشنا ، واضطرمت أحاسيسنا ، وتأججت مشاعرنا ، وأردت أن أثبت له حبى فوهبته نفسى .. زوجة حليلة أمام الله ، يشهد علينا القمر ونجومه .

وذاع غرامنا فى القرية ولم يبق هناك من لم يعرف به إلا أبى . فقد خشينا بطشه وجبروته . ولم أحاول أنا من جانبى شرح الحب الكبير الذى ملأنى — كيف يفهم من لا قلب له ؟

وحنت علينا القلوب كلها وغمرنا الجميع بالعطف ، وخاصة بعد أن تزوجنا على سنة الله ورسوله على يدى مأذون قريتنا فى كوخه ، يحيط بنا أحباؤنا المقربون .

ومرت أيامنا أسطورة سعادة .

فلما شعرت بروح جديدة تدب بين أحشائى ، هرعت إلى جدتى — كبيرة بيتنا بعد وفاة أمى — وصارحتها وأنا أرتجف لا أعرف بالضبط شعورى . أعَن غبطة يعربد قلبى فى صدرى أم عن رهبة .

قالت جدتى :

— « خير يا بنتى . . . خير ! لا تخافى . أنت زوجة شرعية ، وهذا أمر طبيعى »

وكرّت الأيام فى غفلة منا . فلما جاءنى المخاض وارتميت أتلوى على الأرض حكت جدتى ذقنها المجعد وقالت :

— « علينا أن نخبر أباك ! »

فهويت على قدميها أقبلهما جزعة :

— « لا ... لا ... لا تقولى له ! كيف ... كيف . »

وشرقت بالكلمات وقد غاض ريقى والتصق لسانى بحلقى .

فمسحت جدتى رأسى :

— « بلهاء أنت ؟ ماذا تظنينني قائلة له ؟ سأخبره أن « مديح » جاءك خاطباً ، حتى إذا هضم ذلك قلت له إننا زوجناك فعلا أثناء غيبته الطويلة فى العاصمة ثم بعد ذلك أقول له . . . » .

ولم تفلح كل أحاجى جدتى إلا فى إشعال النار فى الدار . اندفع أبى خارجاً وسوطه مشرع فى يده وهجم على « مديح » على مشهد من أهل القرية وألهب بدنه ضربا وطرده من عمله . . . بل من القرية . . . بل من الجيرة كلها وتوعده وهو يقسم بأغلظ الأيمان بالقتل إن تجرأ على إظهار وجهه . . .

ونقلت إلى « ستيته » الخبازة هذه الأخبار بعد أن خرجت ابنتى إلى النور بثوان . فضممت اللفة الطرية إلى صدرى ضمة قوية وأفرغت حبى لها فى قبلة على جبينها ، ثم قمت إلى ملابسى وبعض حلى أعقدها فى صرة وودعت أهل الدار بين الدموع والحسرة ، وائتمنت جدتى على صغيرتى وخرجت من دار أبى أسعى وراء رجلى .

* * *

وسكتت « بغدادية » ورحت أنا أحملق فيها وقلبى يدق . أنا إذن أشهد أعنف قصة غرامية سمعتها ! وافرحتاه !

ولكن — وغشيتنى الهموم — الجدة العجوز التى تحاور الموت . . . والوليدة التى كتب عليها اليتم مع أول صرخاتها . . . والبيت المنهار . . . والفرار . . .

فانثنيت على « بغدادية » أحاول إقناعها بالعودة إلى طفلتها . أقسمت لها أن أتدخل لإصلاح ذات البين بين الزوجين العاشقين وبين الأب القاسى المتزمت . دون جدوى . ابتسمت بحزن وقالت لى بلهجة من يحابى طفلا :

— « قلبك فيه الخير والله يا ستى ! لكنك لا تعرفينه . . . أبى . . . الصخر ألين من قلبه ! أما مديح . . . » وقبلت شفتاها الاسم وهى تلفظه : « فيلتظرنى الآن فى زورق صيد عند الضفة الغربية من النهر . . . و . . . » .

وهبت نسمة الفجر حينئذ تحمل إلى آذاننا نغمات مزمار تهز الوجدان كأنها النداء .. الهمس ...

فانتفضت « بغدادية » واقفة وصدرها متلاطم الأنفاس ، وعيناها شعلتان ، وهرولت وصرتها على رأسها :

« هو ... هو ... إننى ذاهبة إليه ... ذاهبة إليه ... إليه ... » .

وسارت كالمغمضة تقودها النغمات النائحة نحو النهر . وتابعتها بنظرى حتى اختفت مع أول خيوط الشمس الذهبية .

فقمت متثاقلة ألملم نفسى وقلبى كليل ، ويممت وجهى شطر بيتنا . ترى ، أأطعموا الوليدة بعض اللبن ، أم سها القوم عنها ؟ مسكينة هى ... حنانك ربى !

فما طالعتنى سحنة « أم متولى » القروية التى تخدمنا تحلب لنا الماء مبكرة حتى صحت بها :

— « أم متولى ... خذينى ... خذينى بربك إلى دار العمدة .. أسرعى ... هيا بنا ... هيا ! » .

فتوقفت المرأة تدق صدرها بكفها :

— « دار العمدة ؟ اسم الله عليك ياستى ! لم فى مثل هذه الساعة ؟ » .

ورمقتنى بريبة ، وتحسست جبهتى بكفها الخشنة وهى تغمغم :

— « عيناك تبرقان ، ووجهك ملتهب ، ونفسك مبهور — مريضة أنت ؟ » .

— « أف لك ... أنا بخير . فى أحسن حال ! كل ما هنالك أن « بغدادية » بنت العمدة قابلتنى وقصت علىّ حكايتها ورأيتها بعينى هاتين تفر مع زوجها مع أول خيوط الفجر ... سأحاول أن أفهم ذلك الرجل العجوز المتحجر القلب معنى الحب والوفاء ... سأقنعه ... لقد وعدتها ... سأحاول .. » .

فشهقت « أم متولى » شهقة خلت روحها ستفلت معها . وألقت بالجرة التى تحملها على الأرض وارتمت تلهث جنبها وهى تفأفئ وتتأتئ :

— « تقولين له ذلك ؟ اللهم ارحمنا ! اللهم احفظنا ! باسم الله الرحمن الرحيم ! أعوذ بالله من كل شيطان رجيم وجن أثيم لا يؤمن بالله ولا برسوله محمد ! اللهم احفظنا ، اللهم ... » .

فقاطعتها ضجرة أكاد أنفجر :

— « كفى يا امرأة ! وهيا ... هيا سيرى بى إلى دار العمدة ... إن « بغدادية » ... » .

فأمسكت « أم متولى » فجأة بكتفى تهزها بحزم :

— « اسم الله عليك يا ستى ! مالك يا ستى ؟ أفيق لروحك ! « بغدادية » بنت العمدة التى تتكلمين عنها أكلها السمك ... انقلب بها الزورق ليلة فرارها مع زوجها وغرقا ... أما بنتها التى تركتها قطعة لحم طرية ... اسم النبى حارسها .. عروس الآن بنت ثمانى سنوات ! » .

خيط العنكبوت

— « لحمنا يا أمى — نلمه ! » .

— « إن شاء الله تأكلها كلاب السكك — مالنا ومالها ؟ » .

— « كيف ... كيف تقولين ذلك وأنت العاقلة ؟ » .

— « أو أبقوا لى عقلا ؟ يحرمونى رجلى وأنستر على عرضهم أحمى فرخهم ؟ لم ؟ هذا والله كثير ! » .

— « بل واجب ! يا أمى ... » .

وركع « الليثى » على ركبتيه إلى جانب ، أمه وكل خلجة فيه تبتهل ، تستعطف . ولكن « كعب الخير » أشاحت عنه بوجهها وهى تهشه عنها بيد فى ضيق . هو يعرف رأيها فلم الإلحاح ؟ العين بالعين والسن بالسن ، الشريعة الأولى — شريعة يعتنقها أهل الصعيد وتسرى تعاليمها فى دمائهم ، نابضة ، حية .

— « قتل أبوها أبى — نعم ولكن ... » .

فهبت ضارية تلقى بنفسها عليه تتشبث بطوقه تهزه وعيناها تقدحان لهبا :

— « وتقولها بسهولة ؟ » وفجأة هدأت وبصقت ناحيته : « أحيانا أكذب نفسى فى أنك ابنى ! . » .

فأطرق « الليثى » يمسح الفروة المبسوطة على أرض الحجرة بقدمه ويغمغم :

— « سأذهب لأجىء بها ! » ...

وجاء بها — ابنة عمه — « ناعسة » ذات العيون الخضر والشعر الحالك والسمرة التى تسبى . وكانت دقيقة الجسم . تسبل جفنيها دائماً وإن رفعت وجهها نحو محدثها . فإذا اختلجت الأهداب السود الثقال وانقشعت فجأة عن خضرة صافية صعق محدثها وضاع — تاه ، غرق فى البحيرة المسحورة القابعة فى أعماق حدقتيها .

وتأملتها « كعب الخير » بحقد من ركنها جنب الفرن .

كانت متسربلة بالسواد قد عقصت خمارها فوق جبهتها حتى لا تفلت خصلة لامعة أو يستبين طرف منديل زاه . وخطت خطوة واحدة داخل الكوخ ثم وقفت فى هدوء ، متشابكة الأهداب كأنها مغمضة ، تنتظره .

وكان « الليثى » مضطربا ، احتقن وجهه وتلاحقت أنفاسه ، وتسمرت نظرته على « ناعسة » وهو يلف ويدور حولها ، كعبته ، يبتعد عنها خطوتين ، ثم يكر راجعا بسرعة إلى جوارها كأنها نور وهو فراشة لا يملك البعد عن محيط شعاعها . وكان يفرك كفيه بشدة ويرمى أمه بنظرة مستجدية وشفتاه تتمتمان بكلمات ابتهال خرساء ، يدعوها أن ترحب بضيفتهما .

فتململت « ناعسة » فى وقفتها تستبدل قدماً بقدم .

فأسرع « الليثى » ينحنى عليها بحدب ، يهمس فى أذنها مسائلا ، معتذراً ، فلما أحاط كتفها بذراعه القوية الخشنة وضمها إليه قيد شعرة كأنما يحميها من عدو مجهول ، ورفعت أمه إليهما نظرها وتراءيا لها عروسين ساعة الزفاف : « الليثى » بقامته المديدة ووجهه الأسمر الوسيم — « الليثى » معشوق بنات « قنا » كلها بجلبابه الجوخى مشقوق الصدر وكوفيته الكشميرية الصفراء حول رأسه يتدلى طرفها على كتفه ، ثم « ناعسة » . . . « ناعسة » .

انتفضت « كعب الخير » ملسوعة تولول وتصيح :

— « إطردها يا « ليثى » . . . اطردها ! لا أطيق رؤيتها ؟ »

فاقشعر بدن ابنها وهو يجيبها بأعلى صوته :

— « أطردها ؟ مستحيل ! مستحيل ! ابصق من فمك يا امرأة ! هى لحمى وابنة عمى و . . و . » . وغاصت نظرته فى البحيرة الخضراء : « و .. حبة قلبى ! »

فتلوت أمه تجأر كأنما تهوى عليها سياط :

— « اطردها يا بنى .. اطردها ! »

— « أمى .. صه ! صه ! »

— « ليثى » . سأترك لك البيت ! سأهيم على وجهى فى الشوارع أستجدى لقمتى . »

لا جواب .

— « ليثى ! » .

— « نعم يا أمى ! » .

— « يهون عليك أن أخرج ؟ » .

— « أبدا يا أمى ! أنت تاج رأسى ونوّارة بيتى ! » .

فلمعت عينا « كعب الخير » بأمل :

— « إذن أطردها ! » .

— « قلت لك مستحيل . . . مستحيل ! » .

فانقضت المرأة على الفتاة تحاول الوصول إلى عنقها :

— « القاتلة . . . بنت القتلة . . . الخونة . . . بنت ال . . . » .

فلما حال « الليثى » بينها وبين ابنه عمه وأزاحها بحزم إلى جانب ، لطمت خديها وشقت ثوبها تنوح :

— « تطردنى من أجلها ؟ تضربنى من أجلها ؟ » .

— « أنا ؟ قطعت يدى يا أمى ! أطردك ؟ أضربك ؟ لا عشت ولا وعيت ! » .

— « اذن اطردها ! » .

— « محال أن أفعل . . . محال ! محال ! » .

فانقضت المرأة بمخلبيها على بطنها تفركها وتهرسها كأنما تنوى اقتلاع أحشائها وهى تصيح :

— « خسئت بطنا حملت بنـذل ... جبان ... لئن الناب ! » .

فمض « الليثى » على نواجذه ، وارتعش صدغه ، وطأطأ رأسه . لكنه تقدم نحو أمه يحاول استرضاءها :

— « أمى ... » .

— « اطردها ! اطردها ! » .

فوضع « الليثى » راحتيه الكبيرتين على كتفى « ناعسة » ودفعها أمامه وهو يقول :

— « أخرج وراءها ! » .

فسابقتهما « كعب الخير » إلى الباب تسد عليهما الطريق :

— « لا ... أنا التى ستخرج ! أنا التى ستفضحك فى البلدة ! أنا التى ... » .

— « أمى ... » .

— « اخرس ! لا أنت ابنى ولا أعرفك ! » .

ودفعت الباب وخرجت تهدر لا تلوى على شىء .

فتبعها « الليثى » بعينيه فى حزن وأسف عميقين . وسرح بخياله وراءها وشردت نظرته لحظة انتقض بعدها عندما وضعت « ناعسة » يداً رخصة صغيرة على ذراعه :

— « ليثى ! أنا كنت السبب . . . سأخرج . . . سأختفى من حياتكما ! »

هنا نسى « ليثى » أمه . . . وأباه القتيل . . . والبلدة . . . وكلام الناس . . وسخرية الأهل . . . الدنيا كلها — وهمس مخبولا فى شعرها يمرغ وجهه عليه ويتشممه :

— « تخرج روحى وراءك ! . . . « ناعسة » . . . « ناعسة » . . . » .

— « نعم يا ابن عمى ! » .

— « لا تشغلى بالك بها ياحبيبتى ! ستذهب عند أختها وسأتكفل أنا بكل مصاريفها . لا عليك . » .

فتضرج وجه « ناعسة » وهى ترنو إليه نوله :

— « الله يخليك يا ابن عمى ! من لى سواك ؟ » .

فارتمى على الأرض يحيط ركبتيها بذراعيه ويقبل قدميها :

— « حبيبتى . . . حبيبتى ! سأعقد عليك بعد الأربعين ! » .

ومر شهر .

ثم حل عيد « قنا » الأكبر : مولد « سيدى عبد الرحيم القناوى » . فازدحمت المدينة بأفواج الزوار أحباب « صاحب الكرامات » الذين وفدوا إليها من أقاصى البلاد وأدانيها ، وضاقت بهم ساحة المسجد على رحبها — أخلاط عجيبة من الآدميين : سيدات وفتيات من مجتمع العاصمة وغيرها من المدن فى سياراتهن الفاخرة ، يسرن خفافاً إلى الضريح يلمعن ثيابهن مترفعات ، حتى إذا تلون فاتحة الكتاب قفلن من فورهن راجعات يلذن بسياراتهن ، وهن يتلفتن يمينا وشمالا متعجبات من المشاهد والناس ، كسائحات بين قوم غرباء . ثم أثرياء حرب متكتلون فى عربات الخيل فيها نساؤهم المثقلات بشحومهن وحليهن ، وأولادهم الذين لا يكفون عن المضغ وحشو أشداقهم بمزيد من مختلف الأطعمة المعروضة ، ثم جموع الطبقة المتوسطة تحتشد فى تواضع وبروح مرحة راضية ، يقود الرجل منهم أسرته خلفه يشق لها طريقاً بكتفيه ومرفقيه وتتبعه زوجه ممسكة بطرف سترته بيدو « طابور » ذريتهما باليد الأخرى ، وأخيراً آلاف القرويين بوجوههم المشرقة الساذجة وملابسهم الزاهية تنبعث منها قوية نفاذة رائحة البتاو والبصل برغم جدتها ونظافتها ، ويندس بين هؤلاء وهؤلاء مئات من باعة « الدوم » والقلل والأباريق و « البلح الأبريمى » ومن الشحاذين والدراويش وقارعى الطبل ونافخى المزمار والراقصين والبهاليل على اختلاف أشكالهم .

واصطحب « الليثى » « ناعسة » إلى المولد فى « الليلة الكبيرة » وزار الضريح ، ودفع الشاب بسخاء فى صندوق النذور وهو يغمغم بدعاء حار حتى ينال إحدى كرامات « سيدى عبد الرحيم » ويتم زواجه بسالبة لبه التى اشترى لها عقدين من الخرز الملون البهيج ومنديلين للرأس زاهيين و « طورة » من الدوم اللذيذ ، ثم قفة صغيرة من الخوص احتضنتها « ناعسة » هانئة بها بعد أن ملأها لها حمصا وقطما كبيرة من الحلاوة ، وتركها عند بائع الحمص الذى كانت له به صلة وثيقة من زمن ، وهمس فى أذنها :

— « انتظرينى هنا يا « ناعسة » . سأذهب لأصلى المغرب فى المسجد وأقرأ بعض « الأوراد » ثم أعود إليك فنندس بين الجموع نتفرج .. بكل شىء .. ونشترى من كل شىء .. ثم نتناول عشاءنا فى أحد المقاهى : شواء وبطيخاً مثلجاً » .

فهزت « ناعسة » رأسها موافقة ، وعيناها فى عينيه تضحكان .

ووضع لها بائع الحمص السمح مقعداً على عتبة الدكان جلست عليه تدعم ذقنها براحتها وتتابع ما يمر أمامها من مشاهد وأناس ، وهى تفكر فى « الليثى » وغرامهما ، وفيما ستكون عليه حياتهما معا ، وأسماء أبنائهما وبناتهما ... لا بد من بنات — بنت واحدة على الأقل تكون حبيبتها .. تساعدها فى شغل البيت و ...

وفجأة شعرت بيد تلمس كتفها . فطار خيالها إلى « الليثى » والتفتت مسرعة بقلب خافق وابتسامة مشرقة لتحملق ذاهلة فى عجوز دردبيس كالزمن الذى حفر بإصبعه على صفحة وجهها أخاديد وقنوات كيفما اتفق ، كطفل لاه يخط بأنملة ما يعن له على الرمال .

كانت من الغجر ، وعلى عادة نساء عشيرتها تتحلى بمجموعة كبيرة من عقود الخرز والأساور النحاسية ، وكان أبرز ما فيها حلق فضى كشق الهلال ذو جلاجل دقيقة بينها ظفر آدمى وخرزة زرقاء ، وهو يترجح متدلياً من منخرها .

فتعلق بصر « ناعسة » به لا يحيد عنه . ومن خلال ضباب الجهل الجاثم على عقلها أطل حافز فطرى يدفعها إلى تملق المرأة وتقديم فروض التحية والاحترام التى تؤمن بوجوبها نحو مثيلاتها من قارئات الكف ، الكاشفات عن الغيب .

فهبت من مقعدها واقفة تبتسم زلفى وتقول :

— « أهلا وسهلا ! مرحباً يا حاجة ! كلك خير وبركة ! » .

وأرتج عليها فأطرقت تفرك كفيها .

فقهقهت الغجرية عن فم فارغ ، ودفعت وجهها نحو الفتاة تغمز بجفن :

— « ترى ، لمن يا مليحة كانت النظرة الحالمة والشفاه الباسمة التى ... طاب قطافها ؟ » .

فلما تضرجت وجنتا الفتاة ولم تجب أنزلت الغجرية قفتها عن رأسها وجلست دون دعوة وأخرجت أصدافها ورملها .

فبرقت عينا « ناعسة » وقبعت على الأرض أمامها تنظر إليها بقلب أسكرته نشوة اقتحام المجهول .

سألتها :

— « ما اسمك ؟ » .

فأجابت بصوت راجف :

— « ناعسة ! » .

— « واسم أمك ؟ » .

— « ستيتة ! » .

وكأنما انقض وحش ينهش أحشاءها . . ضغطت « ناعسة » بذراعيها على صدرها تعض شفتيها محاولة صد الدموع التى اندفعت تغرق المروج الخضراء فى مقلتيها لذكرى أمها .

وكانت المرأة ترقبها بعينى حدأة لا تفوتها فائتة ولا تغيب عنها حركة . فأرخت جفنيها وقد استشفت ما تطويه جوانح الفتاة ، فقالت :

— « ارمى بياضك يا صبية ! ارمى ! » .

فأسرعت « ناعسة » بأنامل مرتعشة ، مضطربة ، تحل طرف منديلها الذى عقدته على بضعة قروش أعطاها لها « الليثى » . فقذفت

على رقعة الرمل بقطعة من فئة القرشين انكفأت عليها فوراً مخالب المرأة سوداء كالأخطبوط تطبق عليها وتغيبها فى ثنايا جلبابها . ثم راحت تنبش الرمل بأصبع معروقة وتغمغم :

— « لهفى على أمك يا صبية ! لهفى على شبابها الضائع . . . الذاوى قبل الأوان ! »

واتخذت سيما الجد ، وانحنت فجأة على الرمل ، وقد قطبت ما بين حاجبيها تنظر إليه طويلا وتنعم النظر كأنما تقرأ كلمات منقوشة على صفحته :

— « ويلك يا مسكينة ! ويلك يا شقية ! نصيبك من الدنيا والله قليل ، وقلبك والله من ثقل الهم عليل ! » .

واختلست نظرة جانبية إلى « ناعسة » ، فلما رأتها تنشج وشفتاها ترتجفان استطردت مطمئنة إلى صدق حدسها :

— « قل يا رمل . . . قل لى ولا تخف شيئاً ! اهمس . . اهمس فى أذنى بأسرارك ، واكشف عن طلاسمك ورموزك ! » .

وانتظرت برهة تميل برأسها تصيخ ، ثم انتفضت تعتدل فى جلستها متوثبة :

— « ماذا تقول يا رمل ؟ » .

ورمقت « ناعسة » بنظرة ثاقبة طويلة زلزلت كيان الفتاة حتى ارتجفت كأنما أصابها قر ، وتهاوت تلهث وترتكن إلى جدار خلفها .

وانخذلت ذراعاها وارتعشتا وهى تعالج الاستمساك وتتساند على يديها . فازدردت ريقها بصعوبة وتمتمت فى صوت صغير :

— « ماذا يقول لك الرمل يا خالتى الحاجة ؟ ماذا يخبىء لى القدر ؟ » .

فلم تجبها العجوز ، ولا هى حولت عنها نظرتها الثاقبة الطويلة . فتعلقت عينا « ناعسة » المذعورتان بالعينين الحادتين المثقلتين بالكحل الأزرق . فما لبثت أن شعرت بخدر يزحف إلى كتفيها كأنما تدب عليهما آلاف النمل وسرى إلى قفاها وانزلق إلى ذراعيها وخصرها . وثقل تنفسها وبطؤ ، حتى تابعت بذهول صوت دخول الهواء إلى حلقها وخروجه منه . وساعد ذلك على زيادة الخمول والدوار اللذين حطّا عليها يلفّانها لفاً ، ودوّى طبل فى أذنيها بضربات هادرة موصولة . فاستسلمت للرغبة الشديدة الملحة التى اجتاحتها وأطبقت جفنيها وقد شعرت بيد خفية لا حيلة لها فى مقاومتها تضغط عليهما بإصرار .

هى ومضة من الزمن غابت فيها عن الوجود ، ثم تنبهت وقد سرى عنها لتجد الغجرية قابعة أمامها لم تزل تتأمل وتقلب بين يديها سلسلة وقلباً صغيراً من الذهب كانت « ناعسة » تزين بهما صدرها . فلما أسرعت تتحسس عنقها الخالى بيد مثلجة ترتجف ابتسمت لها العجوز وقالت :

— « أتبخلين بها علىّ ؟ ها أنت ذى ترينى أمامك لم أهرب .

لست لصة . لكنى عرفت سراً خطيراً كشف لى عنه الرمل ولن أبوح لك به إلا مبادلة بهذه ! » .

وأدلت بالسلسلة والقلب الصغير يترجح فيها أمام عينى « ناعسة » .

فأجابتها الفتاة بلهفة :

— « هاك ... قولى لى ... قولى لى السر ، الله يسترك ! » .

فابتسمت الغجرية فى اعتداد وثقة ، ودست السلسلة فى أعماق عبها ، ثم ضربت يدها تجوس بها هنيهة باحثة فى حنايا قفتها القذرة ، وأخرجت ودعة كبيرة دفعت بها إلى « ناعسة » :

— « خذى يابنتى .. أسرّى إلى « جنيّة البحر » هذه بمكنون قلبك ... بكل ما يهمك ويشغل بالك ويخامرك من مخاوف ووساوس ، حتى إذا أجابتنى عنه سردته من فورى عليك ! » .

فتلقفت « ناعسة » الودعة بين راحتيها فى تبتل تدنى شفتيها منها وتغمض عينيها . ثم انطلقت تبثها فى همس لواعج قلبها : حيرتها ، وغرامها ، ومأساتها . يتعاقب على وجهها ما يجيش فى صدرها من نزعات ومشاعر ، فتقرؤه جليستها ذات الحنكة والدراية كما تقرأ كتاباً مسطورا . فلما أعادت « ناعسة » الودعة إليها مترددة كأنما تعطيها قبسا

روحها ابتسمت الغجرية وأطبقت أصابعها العجاف عليها لحظة ثم ألقت بها على الرمل حيث انغرست فيه على جنبها كجثة لا حياة فيها لشخص مدحور مغلوب على أمره .

فرفعت العجوز رأسها بسرعة إلى « ناعسة » تسائل وهى تشير إلى الودعة :

— « أمك ماتت . . . أليس كذلك ؟ » .

فلم تأمن «ناعسة» نفسها على الجواب ، واكتفت بإيماءة من رأسها وشفتاها حبيستان بين أسنانها .

فارتفع حاجب كاشفة الغيب فى تيه ، وأرخت جفنيها تخفى بريق انتصارها وقد ثبت لديها أنها وطدت قدميها فى الطريق الصواب ، لمست فى تخبطها وترا حساساً تشبثت به ، وراحت تضرب عليه النغم نفسه فتتجاوب أصداؤه فى قلب فتاتها الساذج .

اندفعت المرأة فى أوج قوتها تردد جزافاً بعض ما تحفظه مثيلاتها فى وصف لون من ألوان شقاء الدنيا :

— « مظلومة والله مظلومة ! وحقوق والله مهضومة ! ظلمونى الناس ، وسقونى الكاس ، وقلبى مداس ، مارحمنى شىء من ظلم الناس ! » .

وكانت « ناعسة » تلاحظها وهى تشرق بدموع حبيسة ، تكبت عواطفها فيهتز بدنها بعنف تكاد ضلوعها تنفجر من الكبت والألم

وتستمع إليها فى تقدير ورهبة ، وقد جف حلقها ، وتوترت أعصابها ، وتشبثت عيناها متعبدتين بفم المرأة ، تتلقف ما تتفوه به كلمة كلمة كقطرات عذبة من سلسبيل يبرد غليلها ويحيي موات روحها . ومن أعماق قلبها حمدت ربها لحظها الباسم . . . هذه العرافة — جوهرة مابعدها جوهرة . تُسمعها ما تحب هى أن تسمعه . لا بد أن تكون على صلة وثيقة بالجن — أو لعلها زوج لجنىّ . . . أمر شائع مألوف لا وجه للغرابة فيه : يتزوج جنىّ إنسية أو إنسى جنيّة ويتعاونان فى كسب العيش . كل الناس يقولون ذلك . نعم ، نعم . لقد سمعته مراراً وتكراراً . . . وإلا فبماذا يفسر المرء تلك القدرة الخارقة على كشف الغيب وقراءة الماضى ؟ لا ، لا ، ومقام النبى إنها امرأة مباركة !

ورمقت « ناعسة » الغجرية بحب واحترام شديدين ، ودسّت فى يدها قطعة أخرى فضية وهى تهمس فى تذلل :

— « السر والنبى ياخالتى الحاجة . . . قولى لى عليه ! »

فابتسمت الشمطاء ببطء وغموض ، وهى تغيّب قطعة النقود مع سابقاتها . وزادت حماستها ، فاختطفت كف « ناعسة » البضة الصغيرة وراحت تمسح عليها حتى كادت تدميها براحتها الخشنة كلسان القط تتمايل مع كلمات منغمة مدغومة تلوكها فى فمها الأدرد كأنما تلوك قطعة خبز :

— « يانجم فى السما عالى ، خُط على الكف وقل مالى ، الشقا

مكتوب لى أوراحة بالى ، بالحب انشغل قلبى ولا سالى ، شوف البعاد من نصيبى والاّ الصفالى » .

ثم مالت على « ناعسة » تهمس :

— « قلبك مشغول ! » .

فأومأت « ناعسة » ووجهها يلتهب ، فقالت العجوز :

— « قريب والا غريب ؟ » .

— « ابن عمى . . . » .

فغرغرت العجوز بضحكة نصفها حشرجة ونصفها سعال :

— « على رأى المثل : أنت همى يا ابن عمى ! » .

ثم قالت :

— « أراه يحبك . . . يهواك . . . يعبدك ! »

فتطأطىء « ناعسة » رأسها وتزيد حمرة خديها ، والمرأة لا تنزل عينيها الثاقبتين عنها .

— « واقفة لك واحدة سمرا من دمّه تكرهك ! » .

— « إى والله ياخالتى الحاجة . . . صحيح ! » .

— « من تكون ؟ » .

— « أمّه . . . داهية تأخذها ! » .

— « والكره والحقد . . . لم ؟ » .

— « قتل أبى أباه ! » .

فغمزت العجوز بعينها تتساءل بخبث :

— « وأنت . . . تحبينها ؟ » .

فاحتقن وجه « ناعسة » واندلعت نار فى عينيها الخضراوين كشجرة موسى ، وهى تصيح ويداها تنقبضان وتنبسطان :

— « أنا ؟ أنا ؟ أنا . . . آه يا نارى لو أطول رقبتها ! » .

فقالت العجوز وابتسامة كريهة تتلاعب على فمها :

— « ماذا كنت تفعلين ؟ »

— « أمزّع لحمها . . . أقتلها . . . أشرب من دمها ! »

— « هكذا ؟ لم ؟ »

— « سقت أمى المر ! كانت إذا حلبت أمى الجاموسة عفرت لها اللبن ، وإذا طهت طعاماً لأبى دست فيه ملء حفنتيها ملحاً ، ونهبت شعيرها وقمحها ثم سمّت بهائمها وكادت لها حتى ضج أبى من أمى وتشاءم بها لتوالى الخسائر عليه . فكان يضربها ويذلها ، وأخيراً تفتق ذهن الداهية عن ضربة كانت القاضية ! »

وصمتت « ناعسة » تلتقط أنفاسها وتجفف عرقها المتصبب . وكانت

الغجرية ترقبها بغبطة تمض على نواجذها بقسوة كلما أفاضت الفتاة فى سرد قصتها . فقالت تحضّها على المزيد :

— « قولى يابنتى . . . قولى ! وماذا فعلت أيضا المرأة بأمك ياحبة عينى ؟ »

فقالت « ناعسة » ودموع كثيرة تملأ عينيها ولا تنهمر :

— « أسرّت لأبى أنها فاجأت أمى بين أحضان زوجها . . عمّى . فهب أبى ضارياً . . . كاسراً . . . لا يعى إلى أمى المسكينة الغافلة ، فهوى على يافوخها بجمع قبضتيه ، فتكورت مكانها لاحراك بها أمام الفرن ، حيث كانت تخبز . ولكن . . . » وقهقهت بغلّ « ولكن حدث ما لم يكن فى حسبان زوجة عمى ! »

فمالت العجوز لهفى على الفتاة تسأل :

— « ماذا حدث ؟ »

— « ذهب أبى هائجاً إلى أخيه فى الحقل وقتله أيضاً ! »

— « دون سؤال ولا جواب ؟ »

— « دون سؤال ولا جواب . »

فتمصمصت الغجرية شفتيها وراحتها على كف الفتاة لسان يلعق لم يزل . وتأمّلت الخطوط المتقاطعة لحظة فى الكف الرخصة ثم قالت :

. . . . ستقتله أو يقتلها . . . لا . . لا . لن يقتلها

— « أرى خط الدم فى حياتك لم ينقطع بعد . . . هاك ! »

وتابعت بإصبع عجفاء مكسورة الظفر أخدوداً صغيراً يحيط بمعصم « ناعسة » .

فجحظت عينا الفتاة رعباً وهى تسألها :

— « خط الدم ! ماذا تعنين . . . ماقصدك يا خالتى الحاجّة ؟ »

فملمت المرأة نفسها وحاجياتها وزرعت قفّتها فوق رأسها وسارت لحالها وهى تجيبها من فوق كتفها :

— « ستقتلينه أو يقتلك . . . حبيبك ! »

فتحاملت « ناعسة » على نفسها وقامت تترنح وتتخبط ، ودلفت إلى داخل دكان الحمص والحلاوة ، وألقت بنفسها على أريكة خشبية هناك وهى تنتفض . كان رأسها يغلى يكاد ينفجر ، كأنما حملت كاشفة البخت إليها رسالة سماويّة منزلة عليها تنفيذها . . . قسمتها ونصيبها . . مكتوب على جبينها . . . لا مفر هناك . . ستقتله أو يقتلها . . . لا ، لا لن يقتلها . .

وجاءها صاحب الدكان صديق « الليثى » بكوب من المرطبات إكراماً لشخص صديقه ، فاحتسته « ناعسة » ذاهلة ، ثم راحت تلوك لسانها فى فمها تبحث له عن مذاق . فقد كانت المرارة تغلب على كل شىء فيها : مرارة فى حسها ، وفكرها ، وقلبها .

فلما لحق بها « الليثى » وسحبها من يدها يقودها مترفقاً ليبدأ

نزهتهما كما وعدها وعيناه عالقتان بها فى شوق وهيام ، تركت يدها فى يده هامدة لا روح فيها ، وأطرقت برأسها وهى تتبعه . فدفعها أمامه داخل مقهى بلدى حيث تناولا عشاءهما . واندمج « الليثى » فى المرح السائد ، واشترك مع الجموع فى ترديد مقاطع المواويل والتصفيق على نغمات المزمار وقرع الطبول . كان الجميع من حولها يضحكون ويصخبون . ولم يُحَرِّم السرور إلا على « ناعسة »

وعادا فى منتصف الليل إلى البيت . فتسللت فى صمت إلى حجرتها . كان النوم أمراً مفروغاً منه . فراحت تخلع ثيابها قطعة قطعة متمهلة ، والأفكار خفافيش سود تتخاطفها ، والوساوس أفاعى متلوية تلسعها فقبعت على الفراش والليل مسدول الستر ، وعينها الخضراء قدّاحة تكاد تضرم النار فى الظلمة .

فلما شق السكون أذان الفجر ، وصاح « الليثى » يناديها لتصب له ماء الوضوء كعادتها ؛ انزلقت رقطاء من فوق الفراش تنتفض متحفزة . وتقوست كتفاها وتوثبت خطاها وهى تمرق من الباب مسرعة تلبى النداء .

وفى غبشة الفجر تسللت شعاعة من نور شاحبة عكست بريق سكين فى كف « ناعسة » وهى مكبّة تلملم عليها طيات ثوبها . .

الدنيا ليل -

. . . والجوقاس ، برودته تلسع الجباه ، وتقرص الأنوف ، وتلطم الوجنات حتى ليحتار المرء أيديرها يميناً أم شمالاً ، كأنما هناك أكف خفية تهوى بالصفعات جزافاً . والسماء مكتئبة ، تتشح بالسواد ولا تنى تسح دموعاً غزيرة كأنما تبكى عزيزاً غاب . وتصفر الريح تواسيها وتشركها النواح فيشتد حماس الغيوم وتفرغ ما فى جوفها حبات مبلورة من الماء تنقر بها رؤوس المارة . فلما ضاق صدر الكون بهذه الكآبة والاكفهرار ، انطلق يهدر راعداً بارقاً ، ينفث عن كظيم غلّه ، فأسرعت النجوم تحتجب وجلة ، وتلاشى القمر ، وانكمشت الطيور فى أعشاشها ، والناس فى بيوتها . وأقفرت الشوارع وأظلمت إلا من المصابيح العامة التى يبعد الواحد منها عن أخيه عشرة أمتار أو نحوها ويطرف بضوء سقيم أصفر ، كعيون مقرحة أضناها رمد . وارتكنت سيارات الأجرة بسائقيها نائمين داخلها جنب الطوار . ولم يبق فى الشارع على طوله إلا تلك ... مركبة الخيل العتيقة يجرها حصان هزيل ، لم يلق بالاً إلى المياه المتساقطة من ذقنه وبطنه ، وراح يحجل ببسالة ، تسمع صوت أحشائه ترتج داخل هيكله ، كأن هناك قروية نشطة تمخض اللبن فى قربة . . .

وانزوت « عديلة » فى ركن من المركبة ، تضم عليها أطراف معطفها الأسود العتيق . ولما شق رئتيها الهواء المثلج كسكين حادة ، سعلت بشدة ثم بصقت فى منديل طوته بعناية كأنما تخفى جوهرة ودسته ثانية فى عبها . وتنهدت وهى تسترق نظرة إلى ابن خالتها «عمر» الجالس إلى جانبها بقميص مفتوح قصير الأكمام . فانبسطت أسارير وجهها الصارمة وهى تتأمل وسامته وشبابه . وتسلل إلى عينيها حنان تشوبه لهفة . . . متى يطلب يدها ؟ وحكت خدها الأعجف . كانت له دائماً الأم والأخت والخادم — اثنى عشر عاماً . وجذبت بحرقة شعرة خشنة نبتت فى ذقنها ، وفركتها بين أصابعها لحظة ، ثم ألقتها بعيداً . اثنى عشر عاماً . . . طوالا عراضا . . . وهى معه . . . فاتحة له البيت . . . تطهو . . . وتغسل . . . وتحوك له قمصاناً ومنامات . . . وترفو الجوارب — فى مسكنهما المتواضع النظيف فى « عابدين » .

وقد فرحت به كابنها وهو تلميذ ابتدائى ، وتاهت به عجباً تلميذاً ثانوياً ، وزاد فخرها وتعالت على جاراتها حين استطاعت أن تقول : « اسم النبى حارسه ذهب إلى الجامعة ! » أو : « محفظ بأسماء الله الحسنى عاد من الجامعة ! » .

والآن . . . الآن تعود إلى بلدتها « دسوق » . . . أما هو فيبحر إلى « أوربا » يتم علومه . متى يطلب يدها ؟ يا سيدى « ابرهيم » يا « دسوق » مدد ! نظرة يا ولى الله ! لكم طهت له لحماً دسته داخل أرغفة لينة وزعتها على الفقراء حباً فى صاحب الكرامات ! فلم تخلى

عنها ؟ كم نذر نذرته وعهد قطعته على نفسها إن حل « سيدى ابراهيم الدسوقى » عقدة لسان « عمر » ودفعه دفعاً لطلب يدها . لقد زها النبت وحان قطافه . . . وهى — هى وحدها الزارعة ! لا حق لغيرها فيه . . . أفنت حياتها . . وأذابت أناملها فى خدمته ورعايته ! لقد انكفأت على الغلام واحتضنته وأضحى ربيبها من يوم ماتت أمه وجاءوا بها ملفوفة فى ملاءة من « مصر » إلى « دسوق » .

وبعد أن واروها التراب واستعد أبوه الموظف فى « المساحة » للعودة به إلى مقر عمله ، صاحت « عديلة » ولطمت خديها ، وتشبثت بالغلام الذى تعلق بعنقها فى صمت مذعور .

وحار الأهل ، وسدى حاولوا تخليص الفتى وإعادته إلى أبيه صاحب الحق الأول ، ولكن عويل ابنة خالته فتت الأكباد . ولم تكن حينئذ بالطفلة حتى يرموها بالطيش ، بل كانت شابة فى نحو الخامسة والعشرين يتيمة وثرية — تمتلك سبعة أفدنة ونصف بيت — وتعيش فى كنف عمها . ولم تكن قد تزوجت بعد ، فأضحت فى نظر أهل القرية عانساً يتمصصون عليها الشفاه أسفاً . فلما أصر أبو « عمر » على موقفه ، استحلفته « عديلة » أن يأخذها معهما خادماً .

فتأملها الرجل القاهرى لحظة رضى بعدها — بل رحب بقريبة ابنه القروية العجفاء . ما ضره أن تحب ابنه لهذه الدرجة ؟ واصطحبها وأقام الثلاثة فى شقة صغيرة فى « عابدين » ، أحالتها « عديلة » إلى جنة نضرة من النظافة والنظام .

وشغل الرجل بعمله ، ووكل أمر « عمر » إلى « عديلة » تطعمه ، وتحمّيه ، وتذهب به إلى مدرسته .

ثم التقى الرجل بمعلمة وأغرم بها غراماً شديداً . فلما نقلت إلى مدرسة فى الصعيد ، سعى ونقل نفسه وراءها ، وهناك تزوجها . ولقد رفضت العروس اللعوب أن يقاسمها بيتها ابن زوجها وقريبته الدميمة . فحار الرجل ، وتردد طويلاً ، وأخيراً باح مخوفاً لـ « عديلة » برغبة عروسه . فأدهشه أن طارت « عديلة » من الفرح وأقسمت لتنفقن من حر مالها على ابن خالتها حتى يشب ويتم علومه . وقد كان ... نزح الرجل إلى الصعيد ولم يلبث أن نسيهما كل النسيان وانصرف إلى زوجه الجديدة وأطفاله منها ، وانقطعت أخباره .

وانفردت « عديلة » بـ « عمر » ، وأسبغت عليه كل ما وهبتها الطبيعة من حنان جياش ، وأمومة ، وحب . ولم تكن مثل لداتها تلبس وتتزين وتتثنى بنعومة ، بل كانت أبداً تنتقى ما تحشم من الثياب القاتمة الألوان تخب فيه خبا ، وتعقص شعرها فى ضفيرة واحدة تلمها تحت عصابة رأسها . ولم يكن أهل الحى يرونها إلا فى الصباح المبكر مسرعة تدب فى مشيتها ، وتزم ما بين حاجبيها الكثيفين ، وعلى كفها صحن الفول المدمس وأرغفة طازجة لإفطار « عمر » ، أو وهى تسير خلفه سعيدة راضية تحمل عنه حقيبة كتبه عند عودته من المدرسة عصراً .

ومرت السنوات ومر شبابها خلسة لم تشعر به . ولم يتقدم لها

طوال هذه المدة إلا « شلبى أفندى » كبير كتاب محكمة « عابدين » الأرمل ابن الثامنة والخمسين والمريض « بالروماتيزم » . أرسل لها ذات مغرب « أم نعمات » الخاطبة ومعها صورته — بالساعة والسلسلة الذهبية السميكة تتدلى من أول صدره لآخره — وطلبت منها تحديد موعد للمقابلة .

فشعرت « عديلة » بفرح طاغ مباغت يشوبه كبر — هى مرغوبة . . . جاءها من يخطبها . فتباطأت فى المطبخ وهى تعد القهوة « لأم نعمات » ، وأطلقت سراح ضفيرتها المحناة التى راحت تترنح على ظهرها يميناً وشمالا كذنب كلب يبصبص به . ثم لمست صدرها بكف خشنة مكسورة الأظفار ، تتحسس نهديها . فبهتت . لم يكن هناك سوى كيسين من جلد يتدليان كشمرتين حافتين أهمل ريهما .

فلأول مرة جزعت « عديلة » — من أجل نفسها ، وأسرعت بيد مضطربة تحشو صداراً بالقطن المنفوش ، ثم لبسته وزرّته عليها . فبرز لها من فورها نهدان مستديران كأنهما كرتان ، ارتاحت لهما وفرحت بهما . فتأوّدت فى مشيتها جيئة وذهاباً على بلاط المطبخ وحدها ، تهز ردفيها الضامرين بدلال . وتبسمت على استحياء وهى تنحنى بصينية القهوة للخاطبة . فقالت هذه وعيناها ثقابتان ولسانها ذلق ناعم :

— « اسم الله . . . اسم الله على القمر نوّر ! » .

وبرغم كل ذلك رفضت « عديلة » يد « شلبى أفندى » الممدودة

لها . رفضته رفضا قاطعاً بل هزأت به . كيف . . . كيف تقرنه — بكرشه ونظارته السميكة — بـ . . . بـ « عمر » ؟

كان « عمر » وقتئذ فى سنته الثالثة الثانوية ، يحمل لها كل حب وتقدير ، ويشعر بأشد الحاجة إلى قربيته تلك الحبيبة الحنون وباستحالة العيش وتحقيق آماله فى الحياة دون معونتها . وقد سكت ولم يقل شيئاً عند ما هدد بشريك ينحشر بينهما ، وينتزع منه مكانته وحقوقه .

وقد قرأت « عديلة » فى عينيه هذه المخاوف . . . وأكثر — وهى تقسم وتصر أنها قرأت أكثر . . . فقامت إلى الخاطبة تطردها وترد عليها رداً جافاً .

ولما لامتها جاراتها ولمحن لها « بالقطار الذى يفوت » من هن فى سنها وعلى . . . على شاكلتها ، أشاحت عنهن ساخرة . لم الحزن على تلك الفرصة اليتيمة وبين يديها طيرها . . . تربيه . . . وتعده لنفسها ؟ هى تفديه بروحها ، وتؤثره على نفسها بكل طيب : الملبس الجديد ، والفراش الناعم ، وشريحة اللحم السمينة ، وصدر الدجاجة اللين ، وتنام عند قوائم فراشه ، وتلبس القديم وتكتفى بالفتات الذى يتبقى منه . وهو . . . هو يحبها . . . يقدرها . . . ولا يطيق فراقها . وكلما دست فى يده خمسين قرشاً لمصروفه ، أو طهت له صحن « الكشك باليخنى » الذى يهواه ، انقض عليها يحتويها فى أحضانه ، ويعطر وجهها ورأسها بالقبلات . فكانت « عديلة » تنتفض ، وتشعر بجسدها يخف ويلين ، وبأنوثتها تتمطى وتتلفت متيقظة كحية أحست بالدفء

... صبرك يا « عـديلة » ... صبرك!
كله لك ... كله كله لك ... وحدك ...
بعـد أن يتخرّج ويوظف مهندساً

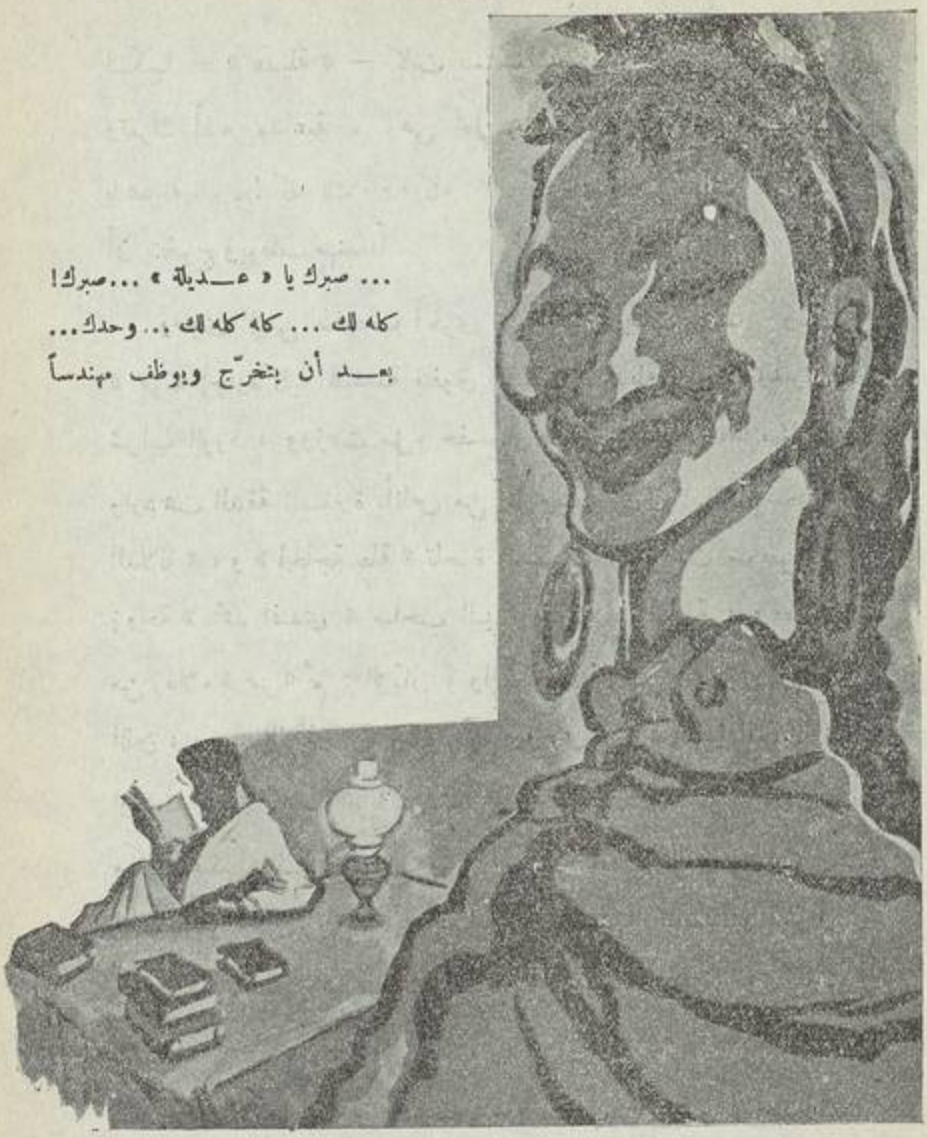

لكنها — « عديلة » — كانت تستمسك متبسمة ، تربت كتفه ، وتفرك أذنه مداعبة ، وهى تحلم بما سوف يكون . صبرك يا عديلة . . . ! كله لك . . . كله . . . كله لك — وحدك . . . بعد أن يتخرج ويوظف مهندساً .

وطوى الزمن صفحات أخرى من السنين بلغت خمساً . ونال « عمر » إجازة كلية الهندسة بتفوق . فسقت « عديلة » يومها الجيران شراب الورد ، ووزعت ملء حفنتيها حلوى على من جاءها مهنئاً . وازدحمت الشقة الصغيرة بأناس من كل صنف ولون : « أم سعدية الدلالة » ، و « الحاجة بطة » تاجرة السمن ، و « ست سوسن » زوجة « محمد أفندى » صاحب البيت وأولادها السبعة ، وعصابة من زملاء « عمر » ثم : الزبّال ، والكواء ، وصبى الجزار ، وبائع اللبن ، وصبى الفرّان — وهى بينهم تروح وتجىء ، سيدة الموقف ، ارتدت لهذه المناسبة ثوباً مزركشاً ، وعصابة رأس حمراء بترتر ، وكحلت عينيها بالكحل الأزرق ، وركّبت « طربوشا » من الذهب لنابها الأيسر . ولم تغب الابتسامة عن شفتيها الناصلتين طوال الوقت وهى تنحنى بصينية الشراب للضيوف ، كأنما تحتفل فى قرارة نفسها بخطبتها .

وكانت ترمق « عمر » يضحك ويصخب بين إخوانه بنظرات والهة ، ثم تغض بصرها فى استحياء وقلبها نشوان . وما انفض الجمع

وأصبحا وحدها حتى أسرعت باسطة إليه كلتا ذراعيها . فقابلها فى منتصف الحجرة واحتوى جسدها الضامر الهزيل بين ذراعيه الفتيتين ، ورفعها عن الأرض رفعاً وراح يدور بها حول نفسه ويدور ، وقهقهته ترن فى الشقة ، وهى تصرخ ضاحكة وتضرب صدره بقبضتيها المعروقتين وفجأة أطلقها ، فوقفت تترنح كالسكرى ، وهو يقفز حولها ويضرب فخذيه طربا لمنظرها . فلما تمالكت انقضت عليه تقرص خديه ، وتفرك أذنيه وهو مستسلم . ثم ... ثم احتضنته بكل ما تملك من قوة ؛ وطبعت على فمه قبلة حارة أودعتها آلامها ، وشقاءها ، وآمالها ، وسنى حرمانها ... قبلة أودعتها روحها ... مهجتها ... كل ما يختلج فى صدرها من عواطف ويعتمل من أحاسيس .

فبهت « عمر » . كانت هذه أول مرة تنبه فيها أن قريبته تلك التى نشأ فى حجرها : امرأة ، كان يشعر دائما أنها بين بين ... وسط بين الرجل والمرأة ... لها من صفات الأنثى الاسم والضفيرة ... والحنان ... ومن صفات الرجل كل شىء ... تقريبا .. القسمات ... والحزم ... والخشونة .

فانحنى الفتى — يخفى ارتباكه — على يديها يقبلهما ويمسح بهما وجهه . فتعلقت عيناها بشفتيه مترقبة ، آملة . متى يطلب يدها ؟ الآن ؟

ولكن «عمر» وقف جنبها مطأطئ الرأس ، يفرك كفيه . فقالت تشجعه :

— « مالك يا «عمر» ؟ أهناك شىء تود أن تبوح لى به وتتردد ؟»

فقفزت نظرة دهشة إلى عينى « عمر » وصاح

— « كيف عرفت بالله عليك يا « خالة عديلة » ؟ »

فمبست ... لندائه . إنه مازال يسميها « خالة عديلة » مثل أول يوم تبنته . لا ضير ... لاضير ! كل شىء سيتغير — فى أوانه . عند ما يتزوجان ، سيناديها : « عديلة » أو : « عدولة » ... أو ... حتى . . . ربما . . . «عدولتى» ! من يعلم ؟ كل شىء جائز . . . جائز !

فتبسمت وأجابته غامزة :

— « أو يخفى على عين المحب أمر من أمور حبيبه ؟ » .

ففاتت « عمر » الغمزة ، وقال ببساطة :

— « لا . . . ولكن . . . »

وفجأة ركع عند قدميها . . .

— « خاله عديلة » . . . أنت حبيبتى . . . هناك . . . هناك شىء أتمناه . . . أمل أحيا من أجله . . . فى تحقيقه إتمام هنائى . . . طالما حلمت به وتمنيته . . . وسهرت الليالى أرقاً أفكر فيه . . . » .

فخفق قلبها بعنف ، ومالت عليه لهفَى :

— « هيه ؟ » .

— « . . . لقد ربيتنى . . . وحنيت علىّ . . . وتكلفت الكثير من أجلى . . . ولذا . . . لذا تجدينى متردداً . . . أخشى أن أكون

أنانياً فى مطلبى . . . وأظهر بمظهر الجشع . . . الذى يود أن يستحوذ على كل شىء . . . كل شىء . . . » .

فلوحت بيدها مضطربة ، وتهدج صوتها وهى تسأله :

— « قل . . . قل يا « عمر » يا حبيبى ! ماذا . . . ماذا على بالك ؟ »

— « أحقا تسمحين لى أن . . أن أصارحك بما فى قلبى ؟ »

فكادت يغشى عليها من فرط السعادة التى أضحت قاب قوسين منها ، حتى إنها بسطت راحتها فى حركة لا شعورية — غريزية ، وضمتها ثانية بحرص شديد كأنما تقبض على شىء ملموس :

— « قل يا حبيبى — قل ... »

— « أوربا يا « خالة عديلة » — أوربا ! كل أملى فى الحياة أن أسافر أنتم علومى ! »

***

وها هما ذان الآن فى مركبة الخيل العتيقة ، والدنيا ليل . . . والجو ممطر . . . فى طريقهما إلى محطة « مصر » لتستقل هى منها القطار الذاهب إلى « دسوق » . أما هو فبعد أن يوصلها ويطمئن عليها ، ويقبلها وتقبله ، يسرع إلى المطار ليلحق بطائرة الساعة الثالثة فجراً لكى تصل « باريس » — التى اختارها — فى العاشرة .

وصهل الحصان الهزيل وشحج ، ثم توقف عن السير . فهب

الحوذى يلهب ظهره بسوطه وهو يستعطفه ، ثم يصيح ساخطاً يلعن جدود آبائه من أول الشجرة إلى صاحبنا الحصان المنهوك . . .

فركنت « عديلة » رأسها إلى جدار المركبة ، وأغمضت عينيها تستعرض حياتها . ماذا جنت — كل هذه السنين ؟ صه . . . صه ! ماذا جنت ؟ رجلا . . . ولا كل الرجال . . . فحلا ولا كل الفحول ! اسم الله عليه — كانت تربيته لذة ، وخدمته متعة ، وتعبه راحة . والآن . . مصيرها ؟ ما هو ؟

قلبت « عديلة » شفتها بضيق متبرمة . أف . . . تبًّا لهؤلاء القوم . . . أهلها . . . الذين لا يفتأون يدسّون أنوفهم فى شئونها . . . ما سمحوا بسفر « عمر » إلى « أوربا » وبرغبتها فى انتظاره فى شقتهما ، حتى هبط عليها منهم فجأة عمها وخالها . . . فلما انقضت أيام الضيافة الثلاثة ، فاتحوها فى ضرورة أوبتها إلى البلدة تعيش بينهم . . . فهى بنت — بكر ، لا يصح أبداً ، أبداً أن تعيش وحدها فى شقة فى «مصر» دون سبب وجيه ، على حين فى الأسرة رجال بشوارب لهم بيوت مفتوحة لها . . . وخير من ذلك يزوجونها . . . نعم . . . نعم سيزوجونها ، فهناك « الشيخ بسطويسى » شيخ الخفراء . . . أرمل تزوجت بناته وأولاده وخلفوه وحيداً لا يجد من يخبز له رغيفاً ، أو يطهو له لقمة . . . أو يناوله جرعة ماء . . . وقد رحب بزواجها — نعم ، لقد فاتحوه فى أمر زواجها قبل حضورهم إليها — رحب الرجل بها . . . أيما ترحاب . . . وقد مال عمها على

أذنها يهمس : إن هذه فرصتها الأخيرة وإلاّ . . . وإلاّ كانت عارا على أسرتها ، ورماها أهل البلدة بكل موبقة . . .

تنهدت « عديلة » بحرقة ، ورمقت «عمر» خلىّ البال جنبها بنظرة طويلة . . آملة . ما زال هناك وقت . . . ربما طلب يدها الآن . . . أو حتى فى القطار . . يارب . . . يارب . . . والنبى يارب ! يا سيدى « ابراهيم » يا « دسوق » ! يا صاحب الكرامات !

ووصلا إلى المحطة ، وقفز « عمر » نشيطاً يحمل حقيبتها ويمد لها يده يعاونها على النزول . واشترى لها تذكرة ، وسميذتين ، وقطعة كبيرة من الجبن الرومى ، لفها فى جريدة . وكان الجو بارداً ، ورصيف المحطة مظلماً إلا من بعض نور لم يبدد كل الظلال القاتمة . أما تزاحم الركاب فكان على أشده . فحملها « عمر » حملا هى وحقيبتها ، وفسح لها مقعداً أجلسها عليه وفى حجرها لفيفة الطعام .

ودوّى أول جرس . فقبلها « عمر » مسرعاً كأنما يقوم بواجب ، أما هى فتعلقت بعنقه تنشج بلا دموع وتغمغم :

— « عمر . . . عمر . . . »

. . . دون أن تفصح عما يمضّها . . . يقتلها قتلا .

فخلّص « عمر » نفسه من عناقها مترفقاً ، وقفز إلى الرصيف .

فأسرعت « عديلة » إلى النافذة المغلقة تلصق وجهها زجاجها ، تبحث عن وجهه بين جموع المودعين .

وتنفس «عمر» الصعداء ، يعب من الهواء عباً . وفرك كفيه ونفخ فيهما . . سعيداً هانئاً ، وهو يلوح لـ « خالة عديلة » بيده مودعا . وفجأة تذكر أمراً هاماً . النقود . . . ليس معه منها الكافى . . . وكانت « عديلة » قد وعدته بإرسال مبلغ آخر إليه بمجرد وصوله إلى « باريس » .

فأسرع إلى نافذتها يحاول تذكيرها من وراء الزجاج بوعدها . سدى . فقد حال ضجيج الركاب ، وصياح الحمالين ، ونداء الباعة ، ورنين الأجراس ، دون الحديث . فهرع « عمر » ملهوفاً إلى جانب وأخرج من جيبه رقعة طويلة من الورق كتب عليها بالخط الكبير :

— « النقود يا « خالة عديلة » . . لا تنسيها » !

. ورفع رقعة الورق عالية فوق الرؤوس . فرأى « عديلة » تمعن النظر فيها من خلف زجاج النافذة وتمعن ، وتظلل عينيها بكفيها وهى تحاول جاهدة قراءة الكلمات على نور المحطة الضئيل . ثم رأى أساريرها تنطلق متهللة ، تفيض بالبشر . وأومأت برأسها بشدة أن قد فهمت ، ولم تلبث بدورها أن ألصقت بزجاج نافذتها رسالة كتبتها بالخط العريض ليقرأ « عمر » :

— « وافرحتاه ؟ طبعاً أرضى ... وسأنتظر ... أنا أحبك » .

وصفر القطار العجوز وانتفض ، ثم أكب لاهثاً ، يشهق وينفث كأنما يجد مشقة فى جر عرباته ، وطواه الليل فى ظلماته .

وعندما غابت المحطة عن عينيها ، جلست « عديلة » فى مقعدها تحتضن لفيفة الطعام ، تشق وجهها ابتسامة كبيرة ، ولا تسعها الدنيا لفرط سعادتها ..

وغمغمت تحدث نفسها :

— « لا زواج ولا هباب ؟ قال « الشيخ بسطويسى » .. قال ؟ سأرفضه . . . وأرفضه بشدة . . . حتى لو قتلونى . . . وسأنتظره . . « عمر » — « عمر » حبيبى . . تربية يدى » .

ثم تنهدت ترتعش أحشاؤها لفرط نشوتها :

— « لقد خطبنى آخر لحظة » ؟

أنتَ... أنت دائى!

« سميح » ... صحفى شاب ناجح ... نجح كالعاصفة فى اكتساح كل عقبة اعترضته .. وكالزوبعة بدأ قرب الأرض ... متجمعة قواه ... متحفزة مواهبه .. يزحف على مهل . . ولكن فى إصرار وعزم ... وفجأة هب كالمارد عاصفاً فوق الرءوس ... ينفث حيويته ويسكب يراعته — عبقريته فى قلمه لينتفض هذا حيًا يخطها آراء من نار ... متوهجة .. تطيح بمنافسيه ... تطفىء نورهم وتخفض هاماتهم . وقد صبر منهم من صبر على أمل أن يمر كما تمر أخته العاصفة لكنه صمد ... واستقر عالياً ... عاصفاً ... رائعاً ...

غير أنه اكتسب من صفات الطبيعة الغاشمة تحجّر العواطف ... وصم القلب ... وبلادة الوجدان . فكما لا ترحم العاصفة بل قد تنتزع فى عنفوانها وليداً آمناً من بين ذراعى أمه ، أو تهد بيتاً على رءوس من فيه من أطفال أبرياء .. أو تدك مدينة بأسرها مكتسحة أمامها الصالح والطالح ... كذلك كان هو يسير ... ويسير ... إلى الأمام ... دائما ... دائماً إلى الأمام ... لا ينظر تحت قدميه إلى من وطئهم ... تدوّى فى أذنيه صيحات المديح والإعجاب تطن فى رأسه فلا يسمع أنيناً ولا يفهم شجناً ، حيوان فتى ... حصان جامح يضيق بقوى مدخرة ترهق أعصابه

وتخزه فى جنبيه كالهماز ، فينطلق يبعثرها يميناً وشمالاً ... لا يلقى بالاً إلى الأعشاب التى تعلق بحوافره فى جموحه .

هكذا كان ... صاحبنا ، تتشبث النساء بقدميه أو بطرف سترته ، فلا يتوقف ولا يفلتهن .. بل يتركهن حتى يتساقطن عنه كأوراق الشجر الذابلة . والنساء كن دائماً فى عينه سواء ... إلا الإيطاليات ، عشقهن جماعة كبنات شعب حارّ الدماء تتجاوب فورة شبابهن مع ثورته هو وعنفه ، وعشق أكثر ماعشق صدورهن ... وتغنّى بها فى مقالاته ... وأشاد بالنعيم الذى يحسه المرء ورأسه بين نهدين كبركانى « فيزوف » و « سترمبولى » .

فكان أن ترعرع منه البدن .. وطغى ... وتمود أن يستخلص حقه كاملاً ... دائماً ، أما قلبه المهمل ... فجفّ ... ثم عجف ... ثم علاه الصدأ ... كجرس غير مستعمل ، كنت تسمعه يتحدث عن النساء حديث خبير فى الغزلان يعرف تماماً أى جزء من أجزاء الغزالة يؤكل ... ومتى .. وأيها يترك .. أيها لذّ ... وأيها مر . كفر بالحب ... وقد كان من سوء حظه أو حسنه ، أن كانت كل نسائه على دينه ... الإلحاد بخفقات القلب وإنسانيته ، كن طالبات متعة عابرة من شفتيه ، أونزوة طارئة ألقتهن بين ذراعيه يجرّبن قدرتها على الضم والهصر ، فاستقر فى أعماق اليقين بأن النساء جميعاً أجساد عطشى تطلب الارتواء ... لا قلب هناك . . ولا روح ... ولا نفس .

وعلى قدر ما تهالك هو على تغذية عقله بالقراءة النهمة والاطلاع الواسع .. الشامل ... والسفر المستمر يقطع أرض الله طولا وعرضا من قطب إلى قطب ... لايدع متحفاً عالمياً إلا زاره ، ولا معرضاً إلا تأمل ودرس محتوياته ... ولا كتاباً جديداً إلا التهمه ... لم يهتم قط من المرأة إلا بجنسها ... أنثويتها .

وكان يعيش فى شقة كالعش الآمن مع أمه ... كان وحيدها ومعقد أملها ، تنتظره مصطبرة الساعات الطويلة كما تنتظره غيرها من النساء وإن اختلفت الظروف والمشاعر . وكان لا يضيع وقته يفكر فى طول بعده عن أمه وقسوة وحدتها وهى تحبه ... فهو لا يفهم الحب إلا أنه اعتياد رؤية شخص وارتباط معه لايد لنا فيه . فيشيح بيده يقول :

— « أمى بخير ... بخير ... لا ينقصها شىء ... الجيران معها يسلونها ... أما أنا ... أنا ... فماذا تفعل بى ؟ يكفيها أنى لا أدسّ أنفى فى شئون البيت ... أى شىء يرضينى .. أنا كالضيف آكل وأنام وأقبلها .. وأخرج ثانية ! » .

وأمه ... بقامتها القصيرة الدقيقة ... وضفيرتها الواحدة ترقدها تحت عصابة رأسها فى حلقة متحشمة ... أمه تلك تعبده فى صمت وإن لم يكفّ قلبها لحظة عن البرثرة بالابتهال :

— « النبى تحميه ... يارب ! يا حبيبى يابنى ... أنت تتعب

كثيرا ... النبي ينجح مقاصدك ربنا ! محروس من العين ياحبة قلبي .. يارب .. يارب ، ابنى تخليه لى ! » .

وكانت تطهو له الأطعمة التى يحبها كل يوم ، وهى لا تتجاوز صنفين أو ثلاثة ، قد لا تأكل منها شيئا فى يومها وتكتفى بكسرة وقطعة جبن . فهى عالية السن لا تساعدها معدتها على هضم تلك الألوان الحريفة التى توافق مزاجه ، وخاصة السمك الذى يهواه ، فهو من أبناء الشواطىء . . . أورثه البحر تقلّبه . . . وأورثته الرياح انطلاقها . . . أما الرمال فأورثته عطشها الأبدى للرى !

وعاد ذات ليلة . . . الليلة محور قصتنا هذه . . . عاد وقد خلت الشوارع من الحركة ، ونام أهل ذلك الحى الشعبى حيث اختار أن يعيش ليرضى أمه فلا ينقلها من حيث نشأت إلى بيئة لم تعودها لا لشىء إلا التفاخر بسكنى « الزمالك » مثلا . هو فى غير حاجة إلى إطار مزخرف يضفى عليه بهاء يؤازره فى صعوده . . . كفاه عبقريته وشبابه ثم شخصيته التى تبهر أعين الناس كنور قوى فلا يرون خلافها شيئا . إلى هذا المدى بلغ اعتداده بنفسه . . . وكان على حق .

وكانت الساعة قد بلغت الثانية صباحا عندما أدار المفتاح فى باب الشقة ودخل ، وحاذر أن يحدث صوتا أو يرتطم بشىء . فمد ذراعيه أمامه وراح يتحسس قطع الأثاث ، ويمد إحدى ساقيه ثم الأخرى يتلمس مسلكا دون أن يضغط زر الكهرباء الذى يعرف جيداً أنه

على يمين الباب وعبر الردهة إلى نصفها عند ما سمعها تتنهد . . . فجأة فتسمر مكانه يزم حاجبيه .

فقالت له أمه :

— « تعال يا بنى . . . تعال . أنا هنا منتظرتك على الأريكة فى ركن الردهة ! . »

فعاد ثانية إلى زر النور وضغطه ، فغمر الحجرة وبَدَّد ظلام السحَر الكثيف ، فى حين صاح هو بأمه :

— « لم تجلسين هكذا فى البرد يا أمى ؟ لم تتعودى السهر قط . . . ولا من أجلى . طفل أنا ؟ » .

وتسللت إلى صوته نبرة غضبَى .

فقالت حانية :

— « بل أنت رجل . . . زين الرجال يابنى . . . ربنا يحميك ! »

ودست يدها فى صدرها وأخرجت لفيفة فى حجم الكف دفعت بها إليه :

— « أتى بهذا « الطرد » ساعى البريد بعد صلاة المغرب . ولما رأيت عليه أختاماً غريبة وطوابع بريد إفرنجية خفت أن تكون ذا أهمية كبيرة لا تحتمل الإرجاء لغد . . . فانتظرتك هنا « بالطرد » على حجرى ! »

فتلاعبت على فمه ابتسامة كمن يستمع إلى طفلة لم تنضج بعد .

— « قومى أنت . . . ونامى ! »

وسار إلى حجرته و« الطرد » بين يديه يحل أصماغه وينزع أوراقه . وعلى عتبة الباب توقف يدقق النظر فى الأختام ويحك رأسه الجميل عند ما قرأ اسم البلدة المرسل منها « الطرد » : « زيزينيا » . . . « زيزينيا » . . . « زيزينيا » . . . آه . . . إنها قرية صغيرة مرّ بها . . . مرّا . . . ذات صيف . . . أغلب الظن منذ سنتين . . . أثناء رحلة له إلى « إيطاليا » . . . توقف بها القطار الذى قطع به المسافة من « فينّا » إلى « روما » لكنه . . . ومرة ثانية دعك جبهته . . . لكنه لا يعرف مخلوقاً بتلك القرية . . . أغلب الظن . . . أنه تعرف . . . على ما تسعفه الذاكرة . . . بأسرة ريفية لا يذكر الآن من سحن أفرادها أحداً . . . ترى ، من ذكره . . . الآن . . . منهم ؟

وهز كتفيه ، وركل باب حجرته وراءه فانغلق ، وارتمى هو على سريره يتمطى فى بحبوحة ويبتسم لنفسه ، ترتعش عضلاته تحت قميصه الخفيف ، كالفهد النشوان بفتوته . ثم اعتدل يتأمل محتويات « الطرد » : قلباً ذهبياً صغيراً ولفيفة أوراق متأكلة . . . مصفرة . . . ثم لا شىء غير ذلك . وكانت الأوراق مطوية بعناية ومرقمة . فبسطها أمامه وشرع يقرأ :

السبت ١٠ يوليو : أنا فرحانة برغم تعبى . أمضيت اليوم طوله أغسل جواربى وملابسى وأكوى ثوبى الحريرى الوحيد استعداداً للغد . أى غد . . . تعال . . . تعال سريعاً لا تطل علىّ الانتظار . . . غداً أسافر وحدى لأول مرة . جهزت أمى بعض الفطير والبيض فى سلة لآخذها هدية إلى جدتى وجدى المقيمين فى « روما » . « روما » العظيمة التى طالما حلمت بها . . . غداً يتحقق الحلم . قالت لى أمى : روزانا . . . لقد كبرت وصار لك من العمر اثنى عشر عاماً ! اثنى عشر عاماً . . . لأجرب أجنحتى فى فضاء الدنيا إذن . . . سماء « روما » . . . « روما » !

الأحد ١١ يوليو : استيقظت مع الفجر . . . بل فى الحقيقة لم أنم ليلتى تلك . كنت كالعروس فرحانة . . . وجلة . . . تزيد دقات قلبها والساعات تمر وتبتهل إليها فى الوقت عينه ألا تتباطأ عليها وتطول . شىء غريب . . . أشعر فى أعماق أن شيئاً سيحدث لى فى رحلتى هذه . . . لا أدرى ما هو . ربما انقلب بى القطار . . . لا ضير . . . لا مانع عندى . سأرحب بأى تغيير . . . ينقلب القطار فأصاب وأنقل إلى مستشفى جميل وينحنى علىّ الطبيب يتحسس جبهتى ونبضى . . . و . . . صدرى . . . شاب وسيم فى ملابس بيضاء يطل من عينيه حنان . . . حنان خاص بى أنا وحدى . . . وينشأ بيننا حب صامت . لن نبوح به لأحد فى الدنيا . . . أنا وهو فقط سنعرف سرّنا . . . ونحنو عليه . أوه . ها هى أمى تنادينى لا بد أنها تريد أن

زودنى بنصائح جديدة قبل السفر . رباه . . . هذه النصائح والإرشادات قيود تربطنى بها . لم لا تدعنى أتصرف على هواى . . أستمع إلى غرائزى وأجيب توجيهاتها .. « الغرائز » كلمة جديدة تعلمناها فى المدرسة هذا الأسبوع فى درس علم النفس ، وقالت لنا المدرّسة إنها القوى الخفية التى تسيّرنا فى الحقيقة لا عقولنا . غرائزى .. غرائزى .. ما أنت ؟ لست أعرفك ، أأنت ذلك الهمس الخفى الذى يدفعنى إلى التأنق فى حركاتى لأن هناك رجلاً يراقبنى ؟ أأنت ذلك القلق الذى يفور فى أعماقى وأنا مستلقية وحدى على سريرى فى الظلام فأتقلّب .. وأتقلّب ؟ أأنت ذلك الضيق الذى ينتابنى إذا طالت بى العزلة وسط نساء ولم أشترك فى حفلات القرية الراقصة .. وغازلت .. وغازلونى ؟ لست أدرى .. لست أدرى .. أمى تناديني .. دائماً تناديني .. سأذهب إليها ، الآن وسأدسّك يا مذكراتى .. يا سلوة قلبى .. بين طيات ثيابى فى حقيبة السفر .

الاثنين ١٢ يوليو : « روما » شاحبة فى عينى .. سماؤها .. أبنيتها ... كنائسها ... حدائقها ... الدنيا هنا كلها ... كلها تافهة فى نظرى ... لا طعم لها ... لا قيمة لها . لقد عشت . عشت أربعاً وعشرين ساعة فى القطار هى النعيم .. النعيم .. أطفأت نور « روما » قبل أن أراها .. أشعر كأنى أكلت ديكاً رومياً فاخراً مطهواً « بالمارون » حتى شبعت .. ثم جاءوا لى بطبق « كفتة » شعبية وأجبرونى على أكلها بعده . لا أدرى من أين أبدأ .. رأسى يلف .. وقلبى .. قلبى

مجنون .. وصدرى .. صدرى يتفتّق .. ينفجر .. لقد رأيته : آه رأيته لحظة ما خطوت داخل القطار وأشار لى عامل التذاكر إلى مقعدى ، رأيته فى هذه اللحظة .. أروع رجل .. أصابتنى رجفة لرؤيته وشعرت أنى امرأة ، نَظْرَتُه .. نظرة عينيه تلك الفاجرة جردتنى من ثيابى ، والعجيب أنى لم أغضب .. رحت أبتهل .. كأنما يرانى حقاً عارية .. أبتهل وأدعو الله أن أعجبه ، فوضعت يدى على خاصرتى وتأوّدت جهد ما أعرف فى مشيتى وسرت إليه .. وجلست ، فقد كان مقعدى ملاصقاً لمقعده .

ومرت ساعات طويلة وأنا قابعة جنبه أحبس أنفاسى وأختلس إليه نظرات كأنها رشفات ماء . وكان نائماً .. أو متناوما .. لم أدر ... تتلاعب على شفتيه ابتسامة . فتململت لأحك ذراعى بذراعه وأكتشف شموراً جديداً . فهالنى أن فتح عينيه بسرعة تأكّد لى منها أنه لم يكن نائماً قط ، وألقى بذراع حولى وضمنى إليه وهو يقول :

— « تعالى . . . تعالى . . أنت تعبانة يا صغيرتى . . نامى هنا على كتفى ! » .

ونمت على كتفه — طبعا لم أنم . لكننى حرت . لم لا يلف ذراعيه كلتيهما حولى كما يفعل شبان قريتنا مع الفتيات عندما يحبّونهن ؟ رحت أفكر . . . غضبَى . . . جريحة الكرامة . لو أننى كنت كبيرة . . . ممتلئة ! فصرخت فجأة وأنا مغمضة العينين كأننى أفزع فى أحلامى . ونجحت حيلتى . فقد قام وحملنى حملا على ركبتيه وضغط رأسى تحت إبطه يربته لأهدأ . فسكنت . . . مخدرة . . . مدغدغة

. . . أختلس إليه نظرات كأنها رشفات ماء . . وكان نائماً . . . أو متناوما . . . لم أدر . . . تتلاعب على شفتيه ابتسامة . .

الحواس . . . رائحته أسكرتنى . . . عرق . . . وتبغ . . و . . . وخشونة أطاشت صوابى . هكذا الرجال ؟ بيتنا بارد إذن . . . بلا حياة . . . بلا روح : أمى وخالتى و « مدام بنيتو » العجوز الفقيرة التى تساعد أمى . . . ثم أختى وأنا . كرهت الجميع فجأة . . حتى نفسى . وكرهت « ألبرتو » صديقى ورفيق عمرى واحتقرته . . . كيف أقارن هذا . . . هذا الطفل ابن الثالثة عشرة بهذا . . هذا الرجل ؟

فرفعت وجهى وما زالت مغمضة العينين . . رفعت وجهى نحوه وشفتاى منفرجتان تتحرقان فجأة . تكويانى . . تعذبانى . . . ماذا دهانى ؟ أأصابتنى حمّى ؟ مررت بكفى المرتعشة على شفتى وجبهتى .

ولمحته من وراء جفونى المسدلة يتأملنى برهة ، ثم ينفجر ضاحكا ويقرص أنفى مداعبا . ثم همس فى أذنى وهو يعيدنى إلى مقعدى :

— « لا أحب الفاكهة الخضراء . . . سأنتظر حتى تنضجى ثم . . » وضغط صدرى بكفه . . « ثم آكلك ! » .

فمضضت شفتى حتى أدميتهما من غيظى . لقد كنت أريده أن . أن . . . ماذا كنت أريد ؟

وسألته :

— « أسبانى أنت يا سيدى ؟ » .

فقال وهو يعقد ذراعيه على صدره ويمد ساقيه أمامه يتمطّى :

— « لا يا حلوة . . مصرى ! » .

مصرى .. فرعونى ... جبّار .. ليتنى كنت جاريته ! كيف .. كيف أستطيع أن أبعد عنه بعد ذلك ؟ وهل إذا خطفنى ... مثلا ... أطيق فراق أهلى ... أمى خاصة ؟ عجبت لنفسى وأنا لا أشعر لسؤالى بأى فزع أو جزع .. ليته .. ليته يخطفنى .

فعدت أسأله :

— « أتمكث فى « روما » طويلا يا سيدى ؟ » .

فرمقنى بنظرة من عينيه الوقحتين هربت بهـا الدماء من أطرافى وأجاب :

— « لا . . أنا ذاهب إلى « روما » خصيصا لزيارة « الفاتيكان » وهذا يستغرق يوما ... ثم أعود ثانية على هذا القطار اللعين إلى « فيينا » .. ومنها أسافر إلى « باريس » .. ثم » .

باريس . . آه من باريس ونساء باريس ! .

لم أسمع أكثر من ذلك . . يوماً .. يوماً واحداً فى روما ؟ معنى ذلك أنى لن أراه متى تركت القطار إذ كيف .. كيف ... أأترك جدى وجدتى وأجرى وراءه إلى « الفاتيكان » ؟ وإن فعلت ؟ سيرحل من غده ... لا ... لا مستحيل ! لقد ربطت حياتى به . . كيف أقول ذلك ؟ جننت ... جننت ... ! أشعر أنه حدوة حصان ممغطسة مما نلهو بها فى المدرسة وأنا جنبه دبوس ... دبوس تافه لا حول له ولا قوة ! لقد دخل قلبى على طريقته التى قيّدتنى إليه من رقبتى ...

أسيرة . . . رَكَل قلبي واندفع داخلاً كالفاتح المنتصر . . . وأنا وراءه .. وسأظل وراءه ... يجرّني من أغلالي كما كان يفعل الغزاة بالأسرى ... في درس التاريخ .

ولما سمعته يقول إنه جوعان أعطيته أحسن فطيرة من الهدية التي أحملها إلى جَدَّيَّ ثم أعطيته واحدة ثانية وأنا أحنو عليه متخيِّلة نفسي زوجته أو ... أو عشيقته ... أعني بشئونه . كانت لحظة ممتعة . . . حلم جميل عشت فيه نصف ساعة .

وفي محطة « روما » افترقنا . وجدت جدي ينتظرني ومعه سيارته القديمة . فهز رأسه لـ « سميح » بتحية قصيرة ، وجرّني من ذراعي وسار بي . . وعنق يكاد ينفصم من التفاتي وراء ظهري إلى الغريب الذي سلبني تفكيري . . . وقلبي . . ونفسي .

لا . لا . لا أحتمل . جدي وجدتي طيبان واستقبلاني أحسن استقبال لكني أضيق بهما . . . وشقتهما فاخرة بالنسبة لبيتنا في القرية لكنها كئيبة تطبق على صدري . . وخادمتها تحبني وتمقص شعري وتربت كتفي وتقول لي :

— « ستكونين فاتنة . . فاتنة . . عندما تكبرين ! » .

عندما أكبر ؟ ما الفائدة ؟ ليتني فاتنة الآن . . . الآن . . ليت صدري متكور . . وأوصالي ممتلئة . . ووجهي نضر حار . . . « سميح » . . . « سميح » !

لا ... لا ! لن أصبر . لا أطيق . سأسافر غدا . ماذا يقول عنى العجوزان الطيبان ؟ لست أبالى .. سأبكى ... وأبكى بحرقة وأقول إن أمى أوحشتنى ... وكفانى ليلة معهما بعيدة عنها ... وسيصدقاننى ... لا بد أن أسافر غداً آخر النهار ... ألحق بالقطار عينه ... أحجز مقعدى عينه ... لا بد ... لا بد ! سأبكى وأتصنع الإغماء ... التشنج حتى ... إلى أن يجيبونى إلى طلبى .

١ أغسطس : جبهتى مكواة محماة .. شفتاى جافتان ... مشققتان ... تنفرج إحداهما عن الأخرى كأنهما متخاصمتان ... الجميع هنا يهمسون أنى مريضة ... جدًّا ... بل فى خطر ... كلما تذكرت الأحداث التى مرت بى فى النصف الأخير من يوليو والتى لم أستطع تدوين شىء منها ... طفرت الدموع حارقة تكوى عينى لذكراها ... لقد أجابنى جدى إلى طلبى وسافرت عائدة فى اليوم التالى على القطار عينه .. ومرة ثانية ذقت النعيم فى صحبة « سميح » ... لقد تهلل عندما رآنى .. وقبّل مفرق شعرى فوق جبهتى ... الشحيح ... الـ ... القاسى ... ليت .. ليت شفتيه ... هبطتا إلى .. إلى ..

وعندما لاحت قريتنا عن بعد لم أستطع كبت لهفتى على مدّ رؤيتى له ، فدعوته إلى زيارة أهلى يومين فرفض رفضاً باتاً . ولما

ألحت نهرنى . . . وأنا أحب قسوته . . . نهرنى وصاح بى ساخرا :

— « ونترجح أنا وأنت معا على أغصان شجرة التفاح . . . ونشرب لبنا . . . ونلهو فى الشمس الصحيّة . . . هيه ؟ » ثم لوّح بذراع . . . « لا يا صغيرتى . . . شوفى لك صبيا على قدّك ! » .

لكنه جاء . . . وأمضى فى قريتنا لا يومين بل عشرة أيام . فقد وجدنا أمى وأختى « سيلفانا » تنتظرانى على المحطة . فما رآها « سميح » . . . « سيلفانا » . . . بشبابها الفج ونهديها الصخابين يكاد الثوب يتفتّق عنهما حمامتين حبيستين لا تفتآن تنتفضان وتدفّان بأجنحتهما . . . حتى اختطف « سميح » حقيبته ونزل معى . وسرنا جميعا إلى البيت .

ومنذ الوهلة الأولى . . . تفاهما كانت « سيلفانا » غضبى من خطيبها الطبيب الكئيب الذى يقيم فى المدينة وممتنعة عن الكتابة له . فلما قابلت « سميح » لبّت نداء الشباب من جهة ، ومن جهة أخرى وجدتها فرصة لإثارة غيرة خطيبها وإذعانه لطلباتها . وفى الليلة الأولى له عندنا . . . يا لها من ليلة . . . سهرنا للصبح حول المدفأة نأكل لحما مشوياً ونشرب نبيذاً . . . واخترت أنا أن أجلس وظهرى لـ « سميح » أحنو على سر قلبى . . أداريه عن الجميع وعيناى . . . وأذناى . . كيانى كله

متجه نحوه . . . ينصت . . . فى لهفة . . فى وجد . وأمضينا النهار التالى طوله فى المزارع وذراع « سميح » حول خصر « سيلفانا » كأنما خطبها لنفسه . . ونسيني أنا تماما . . . كأنى لست مرأة . . . قربه . . . تحس . . . وتتألم .

وذات ليلة بعد العشاء . . . اعتذرت « سيلفانا » بصداع وانسحبت إلى حجرتها . فعرفت للتو أنها كاذبة ... تتعلل ... فاضطرام عينيها وتوهج وجهها وثورة شعرها السخى ... ثم عدم مبالاة « سميح » بانصرافها وهى التى تسلينا بغنائها كل ليلة فى صوت متهدج ينتفض أنوثة تجعل « سميح » يكاد يفترسها بنظراته .. كل ذلك أكد لى أن فى الأمر شيئا . ولم يلبث « سميح » أن أعلن عن عزمة تمضية السهرة متنقلا من مقهى إلى آخر فى القرى المجاورة قبل سفره فى الغد . فقمت من فورى وقد ضاق صدرى بكذبهما أركض إلى حجرتى وأغلقها علىّ من الداخل . ثم فتحت نافذتى المطلة على الحديقة وانزلقت منها فى خفة إلى الأرض متعلقة بالجدار وأنابيب المياه . وتحت نافذة « حجرة » « سيلفانا » انزويت .. متخفية ... أنتظر .

وقد صدق حدسى ... فلم يلبث « سميح » أن ظهر يتلفت حوله متلصصاً يمشى بحذر . فقد كان الظلام حالكاً لا يزين السماء نجم واحد ثم صفر صفيرا يقلد أحد طيور الليل . فانبعث للتو نور باهت حالم من

حجرة « سيلفانا » ما لحه « سميح » حتى أكب يتسلق شجرة التفاح الضخمة التى تحيط بيتنا بغصونها كأنها تحتضنه . ومن مخبئى سمعت قرقعة فروع الشجرة ... وخشخشة أوراقها ... لحظة ... ثم ساد السكون .

فانقض قلبى على ضلوعى دقًا وضرباً كأنما يستفزنى ... يحثنى على ... على عمل أى شىء ... حبيبى ... حبيبى مع ... مع امرأة .. غيرى ؟

ارتميت على الأرض الرطبة أتلوّى .. أشد شعرى ... أخمش وجهى .. أغرز أسنانى فى يدى .. حتى همدت ... تضعضعت ... خارت قوتى .. واستلقيت وخدى الملتهب على أديم الأرض على برودتها تطفىء ناره أو تخمد أنفاس أفكارى ... أفكار جهنمية .. تعذبنى ... تقطعنى .. وكأنما شعرت السماء ساعتئذ بقسوة ما أقاسى فقد بكت .. بكت ... فجأة فى ليلة الصيف تلك .. رذاذاً خفيفاً ... متقطعاً .. أول الأمر .. لم يلبث أن قوى وانهمر غزيراً . فرقدت ساكنة مكانى تغرقنى دموع السماء وأنا أشعر ببعض الراحة كأنما يرضينى أن تشركنى شعورى ، ثم وثبت ورحت أعمل يدىّ وساقىّ فى فروع شجرة التفاح أتسلق .. وأتسلق ... تطرف الأوراق عينىّ ... وتجرح الفروع الدقيقة خدى ... وأشعر بسائل ساخن عليهما فلا أتوقف لأعرف أدماء هو أم دموع ، حتى وصلت إلى نافذة أختى .

وكانت مفتوحة على مصراعيها ينبعث منها نور ضئيل أحمر لا يكاد يبدد الظلمة .

فلففت ساقى حول فرع غليظ وانبطحت بجسدى عليه ... أمد عنقى من بين أوراق الشجرة المتكاثفة . . واستجمعت كل قواى ... كل قواى ... وركزتها فى عينىّ ... تشد أزرها أعصابى . وروحى ... وقلبى . . وشيئاً فشيئاً . تعود بصرى الظلمة الحمراء و . ورأيتهما... رأيتهما . آه . رأيتهما !

٣٠ أغسطس : أشعر بقدمىّ مثلجتين ... ثقيلتين ... حتى لم أعد أستطيع تحريكهما .. وفخذاى . فخذاى هاهو الثلج كالثعبان يزحف عليهما . ومنهما إلى . إلى بطنى . . و ... صدرى .. أف ... صدرى يضيق . أشعر بغصّة . كأن هناك كرة من مطاط صغيرة ... صغيرة . تتضارب بين جنباته ... تصعد إلى حلقى ثم تسقط ثانية بين ضلوعى .. ثم تصعد إلى حلقى ... تحاورنى .. ماذا حدث .. حجرتى معتمة . . ليتهم يضيئون لى النور ... غريب ... إننى لا أرى جيدا ... مع أننى صمت أمى التى كانت تسقينى الدواء منذ برهة تقول إن الساعة الآن لا تتعدى الحادية عشرة صباحاً ... وكانت الشمس تملأ الحجرة . ربما هناك غمامة عابرة حجبتها ... سأنتظر حتى تسطع الشمس ثانية .. لا ... لن أنتظر .. لا أظنها ستسطع ثانية . فالعتمة تزيد ... ويداى تتثلجان وأشعر . أشعر برغبة شديدة إلى أطباق جفنىّ . والنوم . النوم اللذيذ العميق ..

لـكنى أريد قبل أن أنام أن أبث إليك يا مذكراتى بسر مرضى ... مرضى الذى أضنانى وأتعب طبيب قريتنا العجوز « بيترو » وحيّره ... شهرا طويلا ... يخزنى بإبر ، لأنه ظننى أشكو التيفود اللعـين ... وتارة يجرعنى أدوية من كل صنف لأنه ظن أنه اكتشف بى التهابا رئويا حادا ... بسبب بلل ثيابى من المطر والتصاقها بجسدى طوال تلك الليلة ... الليلة الرهيبة التى أمضيتها على شجرة التفاح ...

ولـكن لا ... لا يا مذكراتى : اذهبى ... أهمسى إليه ... إلى الوحيد الذى تفتّح له قلبى .. قولى له ... أنت ... دائى !

أيّام زمان..

صُورتها فى خيالى — « سحَر » بنت الخمسة عشر ربيعا — هى هى أبدا : تضم يديها تضغط بهما على صدرها ، ورأسها ملقى إلى الخلف ، ووجهها مرفوع نحو السماء بعينين مغمضتين فى نشوة كأنما هناك من يمسح على وجنتها بتحنان ، أو كأنما تستنشق هواء غير الذى نستنشقه كلنا . ثم تميل برأسها شيئا إلى جانب ، ترهف أذنيها مفترة الثغر عن بسمة حالمة هانئة ، كأنما يهمس إليها ملك خفى بكلمات غزل يطيب لها سماعها ، وتندفع الدماء لوقعها حارة إلى وجنتيها . وتتكور شفتاها نائتين ، وردة نضرة فى كمها ، على أهبة الاستعداد أبدا لتلقى قبلة العمر من فارس أحلامها الذى يشغلها ويجاورها بحصانه الأبيض فى يقظتها وإغفائها . فتارة هو جبار خشن الطباع ، يختطفها أمامه يكاد يهصر بدنها بين أحضانه ويفر بها على حصانه عبر الصحارى والبرارى ، إلى حيث يعيشان وحيدين على جزيرة نائية ، أسقطها ملك الحب من الفردوس خصيصا لهما ، وتارة هو رقيق يسيل وجداً ، مثال رجل المجتمع العصرى بكل ميزانه ، يراقصها برشاقة ، ويضمها إلى صدره قيد أنملة ، وعيناه فى عينيها تقولان مئة شىء وشيئا . . .

حبيبتى كانت والله هى « سحَر » ... أحبتها أكثر من زميلاتى الأخريات . وكنا فى القسم الداخلى من كليتنا أعز صديقتين وأوفى رفيقتين ، لانكاد نفترق على رغم اختلاف أخلاقنا ، كأنما تكمل إحدانا الأخرى ، وكنا مجتهدتين فى دروسنا ، لذلك لم يكن هناك ما يقلق بالنا من هذه الناحية . أما فيما عدا العلم ، فلم تكن آراؤنا تلتقى البتة . وكثيراً مااحتد النقاش بيننا وعنف ، ثم فجأة نتصافى ، وتحتفظ كل منا برأيها سبب المناقشة ، لا تتنازل عنه لرفيقتها ، ولا تتنازل عن رفيقتها من أجله ، وكانت زميلاتنا ومعلماتنا يتغامزن وهن يشرن إلينا قائلات :

— « هاهماتان مرة ثانية : السالب والموجب فى كهرباء مدرستنا ! »

وكان أهل « سحَر » من « سوهاج » الناعسة فى أحضان الصعيد الأقصى ، على حين يقيم أهلى فى « القاهرة » . فإذا جاء أحدهم لزيارتى ، حمل إلىّ هدية من فاكهة الموسم ، أو الحلوى ، أو فطيرات دقيقة تتهاوى بين أناملنا رقة وعذوبة ، آكلها وزميلاتى فلا تكاد تحيق بأحشائنا ، ونظل نتلمّظ بعدها ونتمصص أصابعنا إصبعا إصبعا ، استطالة للمذاق الحلو الذى مر بنا كالحلم . أما « سحَر » ، فكانت السلال الصعيدية الممتازة بالمتانة وحسن الجدل ، تصلها تباعا ، وقد حوت كل ما تحلم به أمعاء حفنة بنات فى القسم الداخلى من مدرسة أجنبية ، قوام طعامها سلطة خضراء تزيد الشهية الفتية ضراوة ، وشرائح شفافة من الشواء ، نكاد نرى من خلالها الكائنات ، كأنما أرسلها لنا الطاهى عينة . . !

فما كانت « مارى » — الخادم الخصوصية للناظرة — تطل برأسها فى حجرة الدراسة ، وتهمس فى أذن معلمتنا كلمات نرى هذه بعدها وقد ابتسمت ناحية « سحر » وأومأت إليها أن اخرجى لحظات حتى تهب البنت متوثبة تهرع خلف « مارى » وعندما كانت «سحر» تعود ووجنتاها متوردان تلمع عيناها اللوزيتان نفهم — نحن أعضاء العصابة — أن طرداً من « إياهم » قد حل عندنا مكرماً معززاً ...

ويدوى رنين الجرس معلناً انتهاء الدرس ، فنتكالب خارجات نتزاحم حول « سحر » التى يرتفع شأنها بيننا فى تلك المناسبات ، ونمرق متلصصات نختبىء فى زاوية تحت السلم ، وما تلبث « سحر » أن تلحق بنا هى تجر خلفها سلة وقورة انتفخت أوداجها بالعز والخير مما تشتهى الأنفس وتسر الأعين ... وضخم سطحها وبرز مستديراً ككرش محترمة ، يكاد يتفتق عن خرقة الخيش التى تغطيه ، وقد خيطت إلى جوانب السلة «بدوبارة» ، فيعلو هتافنا فى ترحاب ونحن نلتف حول السلة العزيزة نوسعها ضما وتقبيلا ، ونهوى على الدوبارة قضما بأسناننا ، منا من تسلكها من الغرزات بدقة وحزم ، ومنا من تمزع الخيش بأظفارها ، لا ننتظر فى لهفتنا وجوعنا أن نجىء بمطواة أو مقص .

وما ننجح فى شق ثغرة صغيرة حتى يشتد الصراع والتنافس ، ونحن ندب أيدينا تجوس فى ظلام الأعماق تصيد لكل نصيبها ، وتزأر إحدانا كالأسد الظافر وهى تسحب خارجاً دجاجة سمينة محمرة تعمل فيها أسنانها ، وتغرغر أخرى بضحكة جذلة وقد قبضت أصابعها

... وغرق متلصصات تختبئ في زاوية تحت السلم ..

المستكشفة على حمامة محشوة بفريك هو من النعيم . أما التى تكون من نصيبها فطيرة سخية الحجم تنز سمناً وعسلاً ، فكانت لا تنبس بشفة بل تفتح فاها إلى أقصاه ، ويدها بعد فى أعماق السلة ، استعداداً لتلقى الفطيرة اللينة الرجرجة .

وما يخفت شيئا صراخ النسور الجارحة فى أحشائنا ، حتى نروح نتراشق بعظام ضحايانا . ونغترف واحدة ملء حفنتها فريكا تدسه دسا فى فم زميلتها فجأة وتضرب عليه بكفها لا تزحزحها . وقد تزدرده المسكينة تغص به ، وقد تتملص منفلتة ، وتدفع الفريك بعنف من فمها رذاذا علينا كمدفع رشاش ، وهى تقلد جندى الميدان وتدور حول نفسها ، ونحن نكاد نموت من الضحك ، ونختنق بما حشرناه فى أشداقنا . ولا تسل عن صفائح الجبن القديمة وعسل النحل . أما الفطير المسمى « قرقوش العفريت » الجميل ذو حبات الكمون المحمصة التى تزين سطحه فدعه إلى جانب — كان حبيبنا نتقاتل من أجله ونحشر به جيوبنا مع ما يتبقى بعد الوليمة من أرجل حمام وصدور دجاج لوقت الحاجة — ووقت الحاجة هذا كان دائما خلال درس من الدروس . لم يكن يهنأ لنا أكل بقدر ما كنا نتحايل خلسة على ازدراده مستخفيات وراء ضلفتى كتاب مفتوح أمامنا فى غفلة من عين معلمتنا . وكثيراً ما فضحتنا رائحة ما نخبىء من أطايب بين دفاترنا ...

وقد حدث أن دست « سحر » قطعة كبيرة من مربى « المفتقة »

دفعة واحدة فى فمها خلال حصة الأدب الإنجليزى ولا كتمها مرة ... مرتين ... وقبل أن تزدردها هائئة شعرت بيد تقبض على كتفها . فقف شعرها ، وجحظت عيناها ، ودارت على عقبيها لتواجه معلمتنا الأمريكية العجوز بنظارتها ذهبية الإطار مزروعة فوق أنفها تتراقص من الغضب الذى يعتمل فى صدر صاحبتها .

فشهقت البنت وكادت روحها تفلت من يأس موقفها ، وشدقها منتفخ كأنما فيه كرة صغيرة . وكانت المعلمة قد تسللت خلفها دون أن تشعربها مقتفية أثر الرائحة النفاذة التى ملأت أرجاء الحجرة ، تمط عنقها ، كلب صيد أصيل ، حتى قادتها إلى مقعد « سحر » .

فانقضت تعرك أذنها تكاد تقتلعها وهى تصيح :

— « ما هذا الذى أرى ؟ أبقرة أنت لاتنى عن المضغ ؟ يا لـ « شكسبير » المسكين ! يالضيعة تعبه ! لو علم أن ثمار عبقريته ستدرس لأمثالكن ، لفكر مرتين قبل أن يخط حرفاً على ورق ! » .

كل هذا والدموع تسيح من عينى « سحر » المذعورتين ، وقطعة « اللفتة » العتيدة على حالها متربعة فى عظمة داخل شدقها الأيسر ...

فنظر نا بعضنا إلى بعض — نحن صديقاتها — ولم يطل بنا التشاور . فقد أكببنا نحشر أفواهنا بكل ما فى جيوبنا ، وأحطنا بمعلمتنا « مس

يارنز » العجوز نتشدق تحت ناظريها ، وسحناتنا تتقلص وتموج ذات اليمين وذات الشمال من عسر مانقاسى فى المضغ والبلع . فنسيت « سحر » وتحولت إلينا مبهورة تكاد تنفجر من الغيظ ، ثم صاحت بغل ووجهها محتقن وحاجباها الأشيبان رقاصان من فرط ثورتها :

— « مرحى ! مرحى ! »

وانقضت علينا تقرص خدودنا ، وتلطم أذرعتنا ، ومن كانت لها منا ضفيرة تشدها تسحبها منها كمقود الجاموسة ... ثم أمرتنا كلنا أن نقف فى صف ووجوهنا نحو الحائط حتى تذهب تستدعى الناظرة .

وما أغلقت الباب خلفها حتى أسرعنا كالنمل النشيط نزيل كل أثر للجريمة من مكتباتنا ، فكورنا لفائف الجرائد المزيتة وألقينا بها من النافذة التى فتحناها على مصراعيها ليتدفق الهواء طلقاً ، يدفع أمامه الروائح الثرثارة الفضاحة . وكانت إحدانا تحتفظ دائماً بزجاجة ماء فى درجها ، فدارت بها علينا نمضمض أفواهنا ونميل على حافة النافذة إلى خصرنا ، نبصق ونغسل أيدينا .

وجاءت الناظرة تدب بخطوات عسكرية ، فدفعت الباب وشملت الحجرة بنظرة فاحصة لتفاجأ بما لم يخطر على بالها ، حتى لقد سقط فكها وانفغر فاها من فرط دهشتها .

كانت الحجرة مثالاً للنظافة والنظام ، وكانت كل منا تجلس مكانها أليفة مستكينة ، تتصفح كتابها أو تكتب فى دفترها . ولما دخلت ، وقفنا لها احتراماً ونحن نبتسم وننحنى لها بأدب ووقار ، ثم رحنا ننظر إليها مستطلعات بسذاجة وبراءة ، ما بعدها سذاجة وبراءة ...

فاستدارت الناظرة إلى المعلمة المسكينة — التى كانت تقرض أظفارها حرجاً وتحدث نفسها كمن أصابها مس — وسألتها من بين أسنانها وهى تعقد ذراعيها على صدرها فى ضيق :

— « أى « مس بارنز » .. ها أناذى كما طلبت منى ... هل لك أن تخبرينى عن سبب إقلاقى ؟ أدعابة أم مزاح ؟ »

ففأفأت وتأتأت ، تدور حول نفسها ، وتفرك كفيها ، وتغمغم :

— « هن يأكلن خلال الدرس ... أقسم على ذلك »

فانبرت « سحر » العفريتة بعينيها الصعيديتين آسرتين ، ووجهها الأسمر هادئ القسمات يشع براءة ، وقالت بعد أن استأذنت للكلام :

— « أى ناظرتنا المبجلة ... لقد كنا ندرس مسرحية « شكسبير » الخالدة « ماكبث » ، وبها مشهد لثلاث ساحرات شمطاوات ، وصفهن المؤلف العبقرى بقوله : « يلكن الكلمات فى أفواههن الدرداء كأنما يمضغن طعاماً عسيراً ... » فكنت وصديقاتى نحاول تقليد وصف « شكسبير » للساحرات ... »

وهبت أخرى منا تتم دجل رئيسة عصابتنا « سحر » وتقول :

— « ... فربما ظنت « مس بارنز » — وبعض الظن إثم — أننا حقاً نمضغ طعاماً ... »

فردت ثالثة بصوت صغير وهى تطرق استحياء :

— « وهل هذا يليق ؟ هل جئنا أو فقدنا الصواب حتى نقدم على مثل تلك الفعلة ونغضب معلمتنا الفاضلة ؟ »

كل هذا و « مس بارنز » تشهق عجباً ، وتدير عينيها الفيرانيتين فينا ، مبهورة ، تلهث ، كأنما تشهد مسرحية فريدة ...

فتلاعبت ابتسامة على فم الناظرة سرعان ما وأدتها ، وتنحنحت تزم شفتيها الشاحبتين فى حزم ووقار وتقول :

— « آه ... فهمت ! » ثم أردفت : « على كل حال سأرى بنفسى ! »

ودارت علينا تفتح مكتباتنا واحدة تلو الأخرى ، تعبث بأوراقنا ودفاترنا . سدى . لم تجد أثراً ولو ضئيلا ينم عن صدق اتهام معلمتنا لنا ، ولكن ... كان لا بد أن ننال عقاباً .. ما ... حتى لا نشمت فى « مس بارنز » العجوز . فأمرتنا الناظرة أن ندع مسرحية « شكسبير » إلى جانب ، وأن تكتب كل منا مائة مرة بخط واضح نظيف :

« يجب ألا ألعب ألاعيب شيطانية على معلمتنا الفاضلة »

وتركتنا وخرجت .

فرحنا نغمغم ، وندمدم غاضبات .

فرمقتنا « مس بارنز » فى صمت بنظرة طويلة ، وفجأة انفجرت ضاحكة ، وقد غلبها روحها الأمريكى المرح ، وصاحت وهى تغالب الضحك :

— « لقد كنت « أعفرت » منكن فى زمانى ! وَىْ كأن الله ينتقم منى بكن ! » .

فتكالبنا على الحبيبة العجوز ، وكدنا نزهق روحها تماما من فرط ما أوسعناها ضما وتقبيلا ، والمسكينة بيننا توشك أن تفطس وتروح ضحيتنا ...

وقالت زعيمتنا وهى تصوب عينيها الآمرتين على « مس بارنز » ، وقد شحنتهما بكل ما وسعها من سذاجة وفتنة :

— « أى « مس بارنز » .. أغضبى أنت ؟ » :

فنظرت المعلمة إلى « سحر » ومسحت على شعرها الحالك المسترسل ، وتمتمت بحنان :

— « أنتن بناتى ! أو تغضب الأم من بنتها .. طويلا ؟ » .

ومرة ثانية تحمّلت « مس بارنز » ، شهيدة فى اصطبار ، عناق وقبلات عشرين مهرة فتيّة ... !

أم الأولاد

كانت واقفة فى المطبخ تسخن العشاء عند ما صرخ « نبيل » وتبعه « سمير » فصاحت وهى تمسح جبهتها بذراعها :

— « اسكت يا ولد أنت وهو ! » .

فنادتها « عزة » :

— « يا أمى ... »

— « مالك يا أختى ؟ »

— « جائعة ... ! »

— « حاضر يا بنتى ... حالاً ! »

مالها هذه « اللوبيا » ؟ نصف ساعة على النار ولم يذب السمن المتجمد على سطحها — أعنى « الليّة » التى طهوتها بها . والنبى أحلى من السمن البلدى ... قال سمن بلدى ... قال !

زوت « زينب » شفتيها بازدراء .

... غالى ومغشوش ونصفه شمع . وماله ... التدبير ؟ الست الشاطرة هى التى توفر من كل باب قرشاً حتى لا يكل زوجها ويرهق . وكل الأزواج يحبون من ترحمهم — حتى من هم ...

وانتفخت أوداجها ...

... فى الدرجة السادسة مثل « سى محمد أفندى » زوجى ...

هنا تذكرت « زينب » أن عليها أن تسرع وتمشى الأولاد قبل عودة أبيهم من القهوة ، ثم تنظف المائدة بعدهم وتعاون « عزة » و « ليلى » و « سوسن » و « نبيل » و « سمير » و « عمر » على غسل وجوههم وأرجلهم ولبس ثياب النوم ، ثم تجلس معهم تحكى لهم حكاية بعض الوقت ، حتى إذا عاد الأب هرعوا وقبلوه ودخلوا إلى فراشهم ، فتخلو الشقة الصغيرة للزوجين يتناولان عشاءهما فى سكون .

لم يحدث ذلك قط .. هكذا على الأقل ليس بهذا الترتيب ... على هذا التسلسل ... زمان زمان .. منذ خمس ... ست سنوات كان يرجع مبادراً ليرى أولاده قبل أن يناموا — بل كان يحملهم معها إلى فراشهم ... أما الآن ... وشحب وجه « زينب » ، لكنها تجلدت وعالجت ابتسامة شجاعة ... صحيح هو يتأخر ويتأخر فينام الأولاد فوق الأريكة البلدية فى الردهة حيث تعشّوا . فتحملهم وحدها واحداً واحداً إلى حجرتهم وتقسمهم بين الفراشين الموجودين بها : البنات على حدة والصبيان على حدة ، ثم تعود وترتمى مكانهم فى انتظار زوجها . وعند ما يتأخر ويتأخر ويصبح أول ديك تغرف لنفسها صحن طبيخ تأكله باللعقة دون خبز — ولا لقمة . ثم تغرف صحناً آخر تتركه له على المائدة وتغطيه برغيف ، وتجرر قدميها إلى الحجرة الأخرى فى الشقة التى تشترك فيها هى وزوجها ، وتزحف إلى الفراش ترتمى عليه منهوكة القوى . فلا تشعر إلا وابنتها « سوسن » توقظها ، والنور يغمر

الـكون ، لتعد لهم الإفطار ، وتعاونهم على لم حاجياتهم للذهاب إلى المدرسة . وحين تلتفت جنبها تجده يغط فى النوم كالقتيل . متى عاد ؟ متى دلف جنبها ؟ فتقول لابنتها :

— « اذهبى أنت فاغسلى وجهك وساعـدى إخوتك حتى ألحق بك ... »

وتتأمل وجه زوجها الوسيم وخصلة الشعر اللامعة بما دهنها به من زيوت غالية . والنبى حلو ... اسم النبى حارسه ... تشرح طلعته الصدر . وتزحف ابتسامة حانية إلى عينيها تتساقط على شفتيها فتمتد يدها إلى الخصلة فى حنان تزيحها عن عينه المغمضة . وتلحق شفتاها بيدها فى قبلة مفعمة بالحب والإخلاص العميق .

وتتنهد « زينب » وتنهض كلها نشاط تربط نفسها إلى عجلة يوم جديد . وماله ؟ هذا حال الرجال ... غداً يعقل شاب لم يزل . والنبى تزوج صغيراً — وهى كذلك . كانت بنت ستة عشر عاما وهو ابن عشرين . وها هما الآن وبعد عشر سنوات من يراه يقول شاب أعزب ، ومن يراها يقول أمه ... عشر سنوات تلد ، وترضع ، وتحوك ثيابها وقمصانه ، و « تدبر » من القديم أثواباً صغيرة ، وتطهو ، وتـكنس ، وتغسل ، وتوفر له أجر الخادم ، وتضع القرش على القرش ... القروش جيوش ... حتى استطاعا أخيراً شراء دار صغيرة فى « المطرية » من دور واحد .

تبسّمت « زينب » فى هناء . من زمان ، طول عمرها ، نفسها ومنى عينها تعيش فى بيت له جنينة . لقد وعدها « محمد » أن ينتقلا إلى الدار الجديدة العام القادم بعد أن يسجله باسمه . إى والله — باسمه . إنه — زوجها — مولاى كما خلقتنى ... على رأى المثل : لا ملك ولا طاحونة شرك . أما هى فقد باعت حلاها كلها ، ومعظم جهازها ، وسبعة قراريط فى بيت كبير فى « الدرب الأحمر » ورثتها عن أمها . وضمت ثمن كل هذا على ثمن عافيتها بما وفرته من أجر الخادم عشر سنوات ودفعت مبلغ الألف جنيه وحدها بالتمام والكمال . ومع ذلك لم تعارض عندما قال لها « محمد » أنه سيسجل البيت باسمه هو . فربما ... ربما لاسمح الله ... ماتت هى ... مثلا . وجاء أهلها وأخذوا الأولاد ... فأين يذهب هو ! يهون « محمد » يا « زينب » يقع فى حيرة ؟ وغير ذلك ... هناك « العوايد » وشركة النور ... وشركة المياه — أتقابل هى الرجال ويتفرج هو ؟ أترد الخطابات باسمها ... وهو ؟ لوح ؟

وكانت فرحانة ، تشعر بالنصر يومها ، فلم تعترض . ما المانع ؟ بيته بيتها . أليس زوجها ؟ هى ... وهو ... واحد . الأولاد ينشأون بينهما والرابطة تقوى ... وربما ... ربما شعر حينئذ زوجها بجميلها فيسكن إلى البيت وتسعد هى والأولاد بوجوده دائماً معهم . سيشعر بكرامة وعزة وسيشكرها أن هيأت السبيل لرفع رأسه بين الجيران .

والواحدة زوجها تاج رأسها . نعم ... نعم ... صدق والله زوجها . هى خير طريقة — تسجيل البيت باسمه .

تذكرت «زينب» كل ذلك برضا ، وهى تهرول إلى الحمام . فوجدت الأولاد قد فرغوا من غسل وجوههم وإن أحالوا المكان إلى بركة تقبع فى قاعها قطعة الصابون والقبقاب ، وتعوم مع الأمواج الراقصة «القروانة» والكوز ، وملابس النوم الستة . فنظرت « زينب » إلى البالوعة بغيظ طبعا مسدودة كالعادة ... سم !

وأدارت ظهرها للحمام وهرولت إلى حجرة الأولاد . فخلعت عن « سوسن » مريلتها التى كانت تلبسها بالمقلوب ، فى حين وقفت «ليلى» جنبها تدق الأرض بقدمها فى ضيق :

— « أضفرى لى شعرى يا أمى ... يا أمى ... يا أمى ... سأتأخر عن المدرسة فتضربنى « أبلا » ... أضفرى لى شعرى يا أمى »

— «أربطى لى هذا الشريط الأخضر حول ياقتى ياأمى ... ياأمى ...»

— « حذائى يا أمى ... »

— الحقينى يا أمى ... أخى لبس جوربى ولن أتركه يذهب به إلى المدرسة يوسخه لى فى الوحل ... أبداً ... أبداً ... أنا مالى ... أنا مالى ... آه ... آه ... »

وتهب « زينب » قافزة تفر وتكر بين ذريتها ، تلطم هذا وتعبس لذاك ، وتبتسم على الفور وتنحنى تقبل تلك وتدللها . وما إن هدأت الموقعة شيئاً وانجلت عن لبس الأولاد لثيابهم حتى أجلستهم « زينب »

... فى الحمام راحت تتصيد الغسيل السابح وسط القباقيب وتغسله ...

على الأريكة البلدية فى الردهة والمائدة أمامهم ، وتلفعت بخمار أسود غطت به شعرها وعنقها ، وهرولت تهبط درجات السلم إلى « الحوش » حيث وقفت على عتبة البيت لحظة اشترت خبزاً طازجاً . ثم هرولت صاعدة وألقت برغيف أمام كل من أولادها . ثم هرولت بصحن على كفها تهبط الدرج ثانية لتشترى فولاً مدمساً . فلما عادت مهرولة كان الأولاد قد أكلوا الخبز فسبت ولعنت وألقت بالفول أمامهم . فانقضوا عليه وقاموا بعد لحظات عن الصحن وهو أفرغ من فؤاد أم موسى ...

ولما وقفت أخيراً جنب باب الشقة تودع الأولاد وهم ذاهبون إلى المدرسة توصى كبيرهم بصغيرهم ، كان وجهها يفيض بالبشر والحنان على رغم « نبش الدجاج » الذى يكثر حول عينيها وعلى جبهتها من السهر والتعب . وراحت تدس نصف قرش فى كف ... كف صغيرة ممدودة لها ، مصروفاً لصاحبها أو صاحبتها . وأغلقت الباب بلطف خلفهم ، وأسرعت إلى الشرفة تنحنى نصفين فوق الدرابزين وتصيح :

— « الترام ياأولاد ... احترسوا ! العربات ياأولاد .. يا « نبيل » « نبيل » ... « نبيل » ! داهية تقطعك ... عفريت من يومك ! وانت يابنت يا «سوسن » ياشيطانة الشياطين ... إياك أن تفلتى يد أختك الكبيرة — سامعة ؟ »

وهكذا ، حتى غابوا عن ناظريها خلف منحنى ، فتنهدت إذ عرفت أنهم وصلوا إلى المدرسة .

فذهبت إلى الحمام . وهناك راحت تتصيد الغسيل السابح وسط

القباقيب وتغسله وتذهب تنشره على الحبال الممدودة فى الشرفة وتشبكه جيداً . ثم نظفت المائدة وغسلت الصحون وأعدتها ثانية لها ولزوجها . وتلفعت بخمارها الأسود واشترت خبزاً وبيضتين لزوجها وبنصف قرش زيتون لها . هو لا يأكل الفول . والرجل يكد ويشقى ... يجب أن يتغذى جيداً ... على هواه ... ما تطلبه نفسه .

وتسللت « زينب » إلى حجرة النوم تنصت وقلبها خافق . لايزال نائماً ، ما الخبر ؟ ألا يذهب إلى العمل ؟ لابد أنه نال عطلة اليوم . لقد نهاها عن إيقاظه . مالها ولإغضابه ... وتسللت خارجة .

وجاءت بصفيحة فارغة وقطعة خيش واستعدت لمعركة تسليك البالوعة . فخلعت جلبابها الباهت وعلقته فى مسمار خلف الباب . فلما بدا قميصها المرتق تملأه خروم كثيرة خجلت لحظة وضمت ذراعيها على صدرها . ثم هزت كتفيها وتمتمت تطمئن نفسها :

— « أنا وحدى فى الشقة ... ولن أفتح الباب إذا طرقه أحد ! »

وأكبت على البالوعة بسلك رفيع وظلت تعالجها حتى زأرت البالوعة وبلعت المياه القذرة فى غمضة عين ، و « زينب » واقفة وسط الحمام وشعرها منفوش ويداها على خاصرتيها تبتسم فى تيه ، ثم انحنت تمسح الحوض والبلاط حتى برقا من نظافة ولملمت الصفيحة و « الخيشة » وفيما هى تخطو خارجة رأته واقفاً أمامها ... زوجها .

نسيت كل شىء ... كل ، كل شىء إلا منظره الجميل . كان أنيقاً

فى «بيجامته» ذات الحزام يلف به خصره النحيل ... وشعره مرتب ... ووجهه نظيف ... وعيناه براقتان كأنما لم ينم . أما لفافته بين إصبعين وهو يلقى برأسه إلى الخلف وينفث دخانها بين الفينة والفينة فكانت الرشاقة عينها ، ولا تسل عن شاربه المقصّص ... سحر حلال ...

وقفت تتعبّد فى تبتل ، والصفيحة فى يد و « الخيشة » فى يدها الأخرى وجلبابها على كتفها . وكانت ستلبسه فى المطبخ بعد أن تضع أدوات التنظيف هناك ، وكان قميصها قد ابتل والتصق بجسدها الذى تفشى فيه الترهل واتسخت ساقاها من طين أحذية الأولاد ، وتصبب العرق غزيراً على وجهها المنثور بحبوب حمر صغيرة كانت قليلة بادىء بدء ثم زادت من إهمال ... « حب العدس » ... هكذا كانت تسمى ما أصاب وجهها من مرض . هذا لاشىء ... شىء بسيط . « ست برلنتى » الممرضة عندهم فى الحارة قالت لها أن كبدها عليلة وأن عليها استشارة طبيب . طبيب من أجل حبتين ؟ لم ؟ هى لاتشعر بألم ما . هل النقود لعبة لترميها ؟ جنيه يأخذه الطبيب .. ندامة ! تدفعه فى تسجيل البيت خيراً والنبى ! وقد هزت كتفها يومها واختارت وصفة « أم رفاعى » الدلالة ، ودهنت وجهها بمسحوق من « كناسة العطّار » معجوناً بقرش زيت طيب . فالتهبت الحبوب وتقيحت فتركتها « زينب » وشأنها تتزايد وتتوالد والتفتت لأعمالها الكثيرة .

وقف « محمد » يتأملها فى صمت لاينم وجهه عن شىء ، فتنبهت « زينب » لنفسها وقالت له وهى تهرول راكضة ناحية المطبخ بحملها :

— « بعد إذنك ... دقيقة ! ألبس جلبابى وأغسل يدى ووجهى وقدمى وألحق بك لنأكل ! »

فنفث دخان لفافته ببطء وقال :

— « خذى كل راحتك ... كل راحتك ... دقيقة ... اثنتين .. ثلاثة ... »

ودار على عقبيه وسار نحو الأريكة البلدية فى الردهة . واضطجع عليها ودفع النافذة خلفها يفتحها على مصراعيها ، واعتدل يأخذ نفساً من نسمة الصبح تأتى فى إخراجه زفيراً واحتاط جيداً أن يغلق فمه ويستعمل منخريه ... حسب أصول الصحة ! ثم ربت شعره بلهفة يطمئن عليه واضطجع ثانية فى استرخاء .

دار بعينيه يشمل الشقة الصغيرة بنظرة : حجرتان . وردهة ... ودورة مياه .. ومطبخ — شقة علبة تمام . ولكن الكل ، والحق يقال ، غاية من نظافة ونظام . هو يأخذ مرتباً عشرين جنيهاً تقتصد منهم أم الأولاد شهرياً بلا انقطاع ومنذ عشر سنوات ... خمسة جنيهات . ويأخذ هو لنفسه ثلاثة ويعطيها ماتبقى تطعمهم به ، وتكسوهم ، وتدفع إيجار الشقة ، وما استهلكوا من مياه ونور . « زينب » لابأس بها ... طيبة .. وبنت ناس ... وخدامة بيت صحيح . ولكن ... شكلها ! كانت وسيمة — مقبولة يوم الفرح والعام الأول من زواجهما . ماذا حدث لها ؟ ماذا تظن به هذه .. هذه المرأة ... العمى ؟ أم فتور الذوق ؟ إنه لا يزال شاباً جميلاً ... ومس شاربه مساً

خفيفاً ... يحب الجمال وكل جميل . ماذا ؟ أتظنه بليد الإحساس ... ميت الشعور ؟ جماد هو ؟ لابد أن كل الناس تعذره إن هو مثلا ... مثلا تزوج . بل ... بل إنه تزوج فعلا ... ليلة الجمعة الماضية . ابنة رئيسه فى الديوان . غزالة بنت سبعة عشر عاما تتحدث كلمة فرنسية وكلمة عربية وتحبه أعمق الحب ... بل قل هى التى غازلته وقد راق فى عينيها منذ أول لقاء لها فى مكتب أبيها .

ولما كانت وحيدة أبيها فقد أوعزت إليه أن يسأله أمامها : أمتزوج هو ؟ فاضطر « محمد » أن ينكر أم الأولاد ، ويقول إنه إنما يتكفل بأخته الأرملة وأبنائها الستة . فطقطقت « سناء » بشفتيها أسى وفتحت عينيها الحلوة دهشة عند ماعرفت أنه فى الدرجة السادسة وصاحت بأبيها :

— « أوه ... أبى ... أبى ... كيف هذا ؟ لابد أن يكون فى الرابعة على الأقل حتى يستطيع تحمل هذا العبء خاصة وهو ... هو شاب ... »

وابتسمت له فى إغراء صبيانى مقلدة ممثلات السينما ، وأناملها العنّابية تمشط فى دلال شعرها السخى المتهدل على كتفيها . ثم أخرجت من حقيبة يدها التى على شكل كرة ملونة ، قطعة من الحلوى ألقتها فى فمها وناولته قطعة أخرى وهى تتحفه بابتسامة ثانية .

وقد شعر « محمد » يومها أنه ولد من ساعته ، وراح يقدح ذهنه ويقدح ليذكر الشخص الذى اصطبح بوجهه ذلك النهار السعيد ...

ولم يمض يومان على تلك المقابلة الأولى بينه وبين « سناء » حتى استدعاه أبوها . فلما دخل عليه يحكم وضع الطربوش على رأسه ، ويزر سترته متأدباً ، ويؤخر قدماً ويقدم أخرى ، ويستعيذ بالله من الغضب والزعيق على الصبح ، كاد يغمى عليه عند مارأى رئيسه يهب واقفاً يستقبله وسط الحجرة بذراعين مفتوحتين ، ويصيح مرحباً به هاشًا باشًا :

— « أهلا ... أهلا ! تعال ... تعال يابنى ... تعال هنا جنبى . أريد أن أعرفك أكثر ... وأكثر ... وأكثر ... »

وضحكا .

وأطرق « محمد » يتمتم :

— « أنا تحت النظر ! »

فغمزه أبوها :

— « أنت فى العين و ... والقلب ياعفريت ! »

فتباله « محمد » وهو يسأل :

— « القلب ؟ »

ففهقه أبوها طويلا كأنما نطق « محمد » بأعظم نكتة ، وصاح :

— « القلب .. قلبها ... قلب بنتى أنا يامكار ! »

وربت كتفه بل احتضنه وهو يقول :

— « ألف ... ألف مبروك ... ربنا يهنيكما ! »

فسقط فك «محمد» ووقف مبهورا فى حين اندفع أبوها بلامقدمات :

— « ألديك ما يمنع زواجكما سريعاً ؟ إن سيرك فى العمل هنا حميد وأنت شاب وسيم ... وحيد ... وحرام تمر أيامك هكذا ... هباء ... وابنتى هى كل ما لى » .

وتنحنح بمغزى « .. طبعا راحتها تهمنى لذا أول شىء أفعله إن شاء الله أن أرقيك إلى درجة أعلى وأنقلك مديرا لمكتبى ثم أعطيك درجة أخرى وبذلك يتضاعف مرتبك .. هذا حقك .. كنت مغبوناً طوال هذه السنين ! »

فأتى « محمد » بحركة من يده لا شعورية ... عصبية ... كالنائم اهتزازات لا معنى لها ولا إرادة له فيها .

فلوّح أبوها بمرح فى وجهه يقاطعه قائلاً :

— « أعرف ما ستقول ... أختك وأولادها — أليس كذلك ؟ أعطها ما كنت تعطيه لها دائماً ودعها فى بيتها مستريحة كما هى . وطبعاً ... سأعطى أنا ابنتى ما يلزمها . أعنى مصروفها ... خمسين ... ستين جنيهاً شهرياً ... أو أكثر ... كما تطلب ! »

فاستند « محمد » إلى مقعد والدنيا تلف به . ألا يوجد من يقرضه لوجه الله تعالى ؟ يا ناس ... يا أهل الخير ... دلوه ! حى يرزق هو أم مات وهذه هى الجنة وهذا الكلام الحلو يقال هناك ؟

تململ « محمد » على الأريكة البلدية من فرط النشوة وسعادة الذكرى وهو مضطجع ينتظر « زينب » .

وكانت « زينب » فى المطبخ لم تزل تجلس القرفصاء عند بالوعة الأرض وتحك قدميها بحجر أسود خشن فى حجم الكف ، فتتساقط الأوساخ طويلة كقطع الدوبارة . إلى متى يظلان فى ذلك الحى الشعبى الصاخب — السبتية — وتلك الشقة الضيقة ؟ أف ... أعوذ بالله ، لقد نشأ عندها صداع مزمن ودوار . وأصبحت لا تحيا إلا على الأمل المنعش ... أمل يوم انتقالها إلى الدار التى اشترياها ... اشترياها ... الله ! ما أحلى رنة هذه الكلمة فى أذنها ! والنبى سيكون يوم الهنا يوم تصبح لها حديقة صغيرة ملك تربى فى ناحية منها دجاجاً وإوزاً تبلل بلحمها ريقها وريق زوجها وأولادها ، وتزرع جزءاً آخر من الحديقة جزراً وبقدونساً وجرجيراً وملوخيا وبعض الخضر الأخرى ... وكله وفر ! ستحدث « محمد » جديا الآن وهما يتناولان إفطارهما فى أمر انتقالها فوراً إلى البيت الجديد لم الانتظار للعام القادم ؟ لقد دفعت كل مليم للتسجيل الذى تم فعلاً . أما إذا كان « محمد » يحمل هم مصاريف الانتقال وأجر العربات التى ستحمل حاجياتهم فلا لزوم لذلك ... وابتسمت وربتت صدرها حيث تكمن خزانتها الصغيرة .

شعرت « زينب » بقشعريرة فرح لا حد له وهى ترتد جلبابها وتسرع إلى زوجها فى الردهة :

اقتربت منه بجسدها السمين المرتاح وهى تبتسم . وصعدت إلى الأريكة جنبه وتربعت . وفيما هى تكشف الغطاء عن البيضتين المقليتين

اللتين خصته بهما اعتـدل « محمد » فى جلسته يتنحنح ويقول بحزم تلونه قسوة :

— « اسمعى يا « زينب » ... يجب أن تـكونى عاقلة ... ورزينة ... وتقدّرى ظروفى وتردى جميلى لك ولأولادك طوال هذه السنين بأن تقبلى الواقع ... ترضخى وإلاّ ... »

ونهض ، يمط شفتيه ويهز كتفيه :

— « يكون ذنبك على جنبك ! أنا تزوجت والبيت تنازلت عنه بدل مهر وشبكة للعروس ! » .

خادمُ المسْجِدِ

هبط القرية فجأة كما يهبطها وباء . أصبح الناس ذات يوم ليجدوه بينهم : غلاماً فى نحو الخامسة عشرة ، احدودب ظهره ويبس عوده ، ذابلة سحنته ، زائغة نظرته ، ينقب وينبش كومة القمامة جنباً إلى جنب مع الكلاب الضالة . فلما ألقى رجل بحجر ناحية الحيوانات الجربى ليفرقها ويستطيع أن يتبين بينها ، فى غبش الفجر ، ذلك الشبح الجاثم على أربع ، انفتل الغلام هارباً مع الكلاب ، يتدحرج ويتكور ضابحاً يلهث ، وغاب فى الحقول بين عيدان الذرة اليافعة . فعجب القوم لحاله ، وعهدهم بالغرباء من المرتزقة والمستجدين غير ذلك . فتبادلوا نظرات الدهشة والاستنكار فى صمت ، وهم يحثون الخطو ليلحقوا بالمسجد يؤدون صلاة الفجر حاضرة .

أما سيدنا — إمام المسجد — فقد توقف يتابع بناظريه الشبح الصغير الضامر وهو يختفى مذعوراً من ضربة الحجر . فلما قضيت الصلاة وخرج الناس زرافات ووحداناً ، كل إلى حقله ، سار « الحاج علوان » مطأطئ الرأس غارقاً فى أفكاره ، يستعيد فى خياله المشهد الآسى الذى آلمه وحز فى قلبه .

وقادته قدماه إلى شجرة جميز نائية تنحنى فى لهفة على صدر الترعة ،

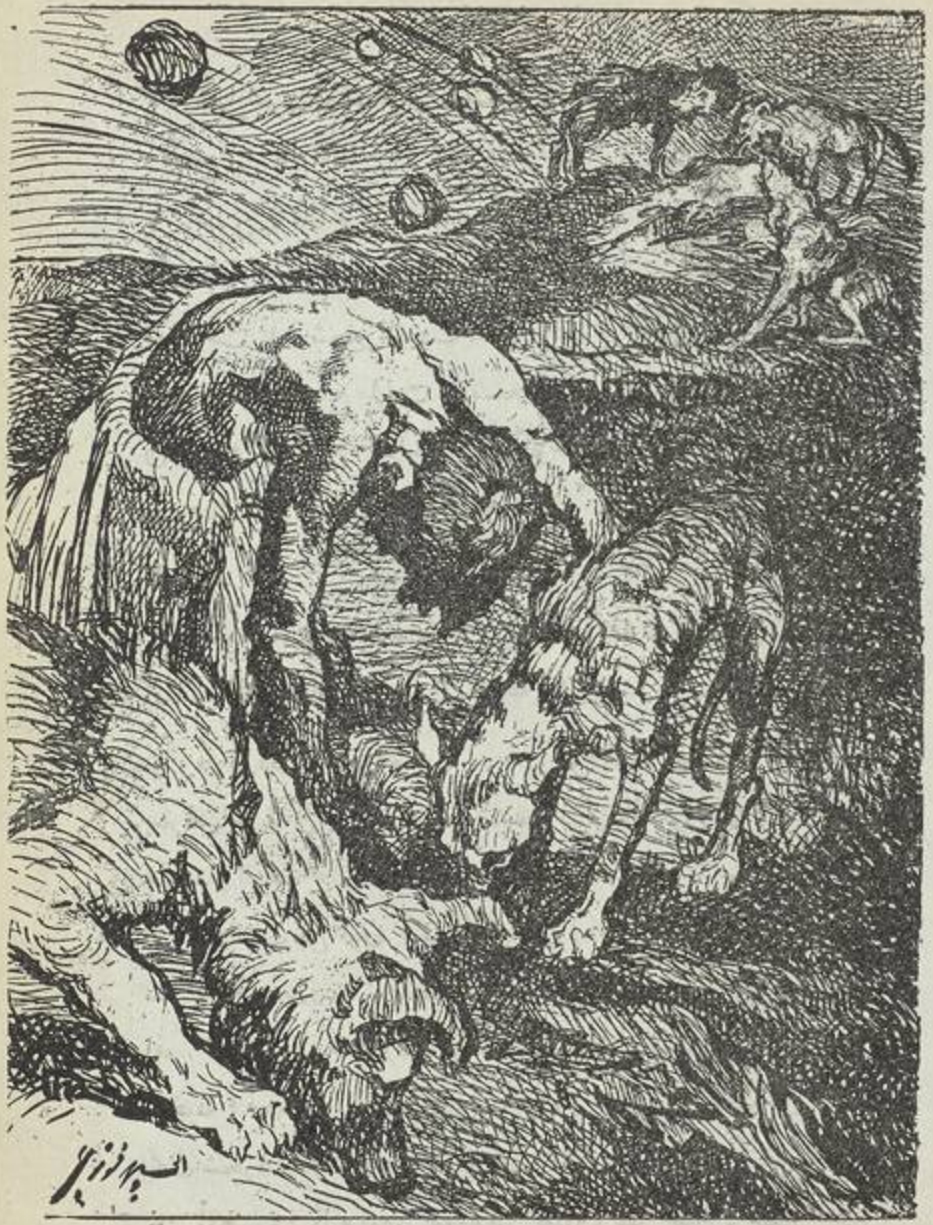

... ... ينقب وينبش كومة القمامة جنبا إلى جنب مع الكلاب الضالة

كأنما تبثها نجوى أو شكوى ، فتضطرب الموجات على السطح اللجى ، وتتهدج من حار الأنفاس وكظيم الزفرات .

جلس « الحاج علوان » يسند رأسه إلى جذع الجميزة الرؤوم ، وأغصانها تكاد فى تمايلها تتشابك حوله أذرعاً حانية ، محتضنة إياه . فلما ناحت يمامة شجية الصوت تناجى أليفاً أو تنعى حبيباً ، انحدرت دمعة على خد الشيخ ما لبث أن مسحها بكفه وهو يستغفر الله ويعتدل فى جلسته . لو أن « محمداً » — ابنه الوحيد — قد عاش لكان فى مثل سن ذلك الفتى الغريب الذى أفزعه الحجر . ترى ، من يكون ؟ ومن أين أقبل ؟

وفجأة رآه . برز متلصصاً من بين أعواد الذرة ، والطريق مقفر يبدو آمناً ، وراح يتسلل فى حذر إلى الترعة ليشرب .

فلم يتردد (الحاج علوان) .. هب من فوره باسطاً ذراعيه نحوه يعترض طريقه فى ترحاب ؛ فقفزت تلك النظرة المذعورة إلى عينى الغلام واستدار لينجو بجلده . لكنه أمسك بعد خطوتين كأنما استرعى انتباهه أمر ، والتفت من فوق كتفه الملتوية إلى (الحاج علوان) وقد أسرته منه سماحة عذبة وبشاشة مطمئنة لم يعهدهما فى وجوه من لقى من خلق الله . فنكس رأسه ، ووقف مكانه فى استسلام ، تسيل من عينيه دموع سخينة ؛ فجذبه (الحاج علوان) من يده فى صمت ، وأجلسه إلى جانبه تحت شجرة الجميز ، وما زال يلاطف البائس المهموم فى رفق وتحنن حتى أذهب عن قلبه بعض همومه التى تغلفه وتثقل عليه ؛ فمسح الغلام

وجهه يجففه براحتيه القذرتين ، وأكب على يدى الشيخ الطيب يقبلهما فقال له الشيخ :

— (لا عليك يا بنى . الحياة كلها هموم . هلا أفضيت إلى بقصتك ، علّى أجد لك من ضيقك مخرجاً ؟) :

فتساءل الشريد فى دهشة مكذباً أذنيه :

— (قصتى — أنا ؟ أويهمك أمرى ؟)

ثم أردف بعد لحظة تفكير :

— (أمن البشر أنت يا سيدى ؟)

فوضع (سيدنا) يده على الرأس المنفوش الملبد الشعر بالأقذار ، وتركها تنحدر على الكتفين البارزتين من الأسمال . ثم أجاب وهو يربت الحدبة الشوهاء :

(لا ريب أنك قاسيت أيها المسكين من غلظة بعض القلوب خلال حياتك القصيرة ما نفرك من عباد الله بلا استثناء ، وأيأسك أن تجد بينهم أخياراً طيبين . لا تأس يا بنى الدنيا بخير . انفض عنك اليأس والمرارة . فالله الذى خلق الأسد الضارى خلق الحمل الوديع ، وهو سبحانه الذى يثير العاصفة هوجاء عاتية ، ويبعث بالنسمة رقيقة حانية كأنها لمسة يده الرحيمة على جباهنا الشقية » .

واعتدل (الحاج علوان) ليواجه الفتى ، ثم قال بحنان :

— (حدثنى يا بنى — حدثنى . اطرح عن قلبك الصغير أثقاله ، فالحمل يخف إذا تعاون غليه اثنان) .

فتطلقت أسارير الغلام لكلمات الشيخ ، كأنما هى أنامل تنضح بلسما ، تمحو بلمساتها تجاعيد الحزن والفزع .

وتنهد الغلام ثم استرسل يسرد قصته ونظرته بعيدة شاردة :

— « لم يكن لى فى دنياى إلا أمى . وقد نشأت يتيمة مقطوعة النسب تعول نفسها منذ كانت فى السادسة ، حتى طوح بها طالعها — بعد طول التنقل — إلى دار عمدة قرية يحيا أهلها جميعاً فى بحبوحة ورغد عيش ، وإن طار فى طول البلاد وعرضها صيت عبثهم ومجونهم ، كأنما الثراء يدعو إلى المفاسد ، ويغرى بمجانبة الهدى والاستقامة .

عملت أمى خادمة فى بيت العمدة الذى كان أعزب متصابياً على رغم تقدمه فى السن ، يخضب شعره ولحيته بالحناء ، ويتكالب على الملذات لا يكاد يفيق . وكانت داره الرحبة الفسيحة تموج بالنسوة من القرويات على كل شاكلة ولون ، يقمن بأعمال مختلفة من عجن وغسل وتنظيف . فسخرن أمى تحت إمرتهن لمعاونتهن وقضاء مايلزم من الخارج . ومارآها العمدة أول يوم حتى اعتدى عليها ثم تركها مهيضة الجناح دامعة العين لا تفقه إلا أن أمراً فظيعاً قد حل بها ؛ ولما زار القرية أخو العمدة — وهو طالب فى الجامعة — لتمضية يومى استجمام قبل الامتحان استباح الصبية المسكينة لنفسه . وهكذا ، عرف الرجال طريقهم إلى فراشها . وإذ بلغت الرابعة عشرة حملت بى . ومات العمدة وهى تتلوى من آلام الوضع منتبذة ركناً قصياً من الفناء . فطردها ورثته ، وشردت فى القرى

تجوبها حيرى مستجدية ، وأنا على ذراعها ، راية عارها ، أزيد همها بعد أن خانها قلبها حينما فكرت فى خنق وليداً .

وتقلصت يدا الشريد ، وضرب بهما صدره القمىء نائحاً :

— « ليتنى مت حينئذ ! ليتها قذفت بى فى جوف الترعة أو ألقتنى إلى ذئب جائع ... إذن لكان نصيب المسكينة من الأهوال أهون مما تقاسى ولوجدت عملا فى حقل أو دار يمسك عليها رمقها . لكنها تشبثت بى فى حب غامر . ولما كبرت وأدركت ما يدور حولى كانت تضمنى إليها بشغف ، على قبحى وقذارتى ، تقبلنى وتمرغ وجهها على جبينى مداعبة ، وهى تتمتم :

« ليس لى سواك أهل يا حبيبى ! »

وصمت البائس برهة كفكف فيها دموعه ، ثم استطرد فى صوت مخفوض يتهدج :

— « وجرتنا عجلة الزمن قاسية وراءها ، تعفر وجوهنا بأديم الأرض ، وتدمى نفوسنا مذلة ومهانة . فلما تعبنا من الضرب فى القرى أقامت لنا أمى ظلة بدائية من بعض أعواد الهشيم وألياف النخيل ، لا تقينا زمهرير الشتاء ولا قيظ الصيف . وتردد علينا شبان ورجال كثيرون ؛ وأخذنى أحدهم أجيراً فى حقله ، أما أمى فقد نبذتها النساء وتحامين اكتراءها لأى عمل ، وكثيراً ما تلقفت بقلب دام اسم أمى فى غمرة السباب المتبادل بين زوجين متشاحنين ! »

وزفر الغلام الراوى ، وانتفض بدنه وهو يعض على شفته بأسنانه الصفر .

فتبسم « الحاج علوان » فى حزن مكبوت وضغط الكتف المهزولة مواسياً ... مشجعاً ، فتراءت من عينى الشريد نظرة تفيض شكراً ولكنه ما لبث أن ران على سحنته ظل قاتم من الذكريات ؛ فقال وصوته تخنقه عبرات :

— « وكرت الأيام على أمى مسرعات تمتص رحيق شبابها وتطحن قواها ، حتى نضب جمالها ، وذوى عودها ، وهوت فريسة الحمى ؛ فخلا كوخنا من رواده ، وأقفر بابه من سماره ؛ وفرغت سلة الخبز ، وجف زير الماء ، وأنا مكب على أمى ملازمها لاه عما سواها ، لا أكاد أجد كسرة أتبلغ بها من مطلع الصبح إلى مهبط الليل .

ثم ماتت . ماتت وخلفتنى لسماع أغاريد النساء وضحكاتهن شامتات ، ومالبثن أن أوغرن صدور أزواجهن وأولادهن علىّ فطاردونى بالوحل والحجارة حتى جلوت عن القرية كلها ؛ ولم أزل المطارد المنبوذ من الخلق جميعاً ! »

وانكفأ على قدمى الشيخ منهاراً ، وراح يمرغ رأسه عليهما فى حرارة واهتياج ، وقد أخذته نوبة من النحيب .

فأحاط (الحاج علوان) الجسد الضامر بذراعه ، وهو يتمصص شفتيه محوقلاً ... مهللاً ... يستغفر العزيز العليم الذى له — جل جلاله — حكمة فى شئون عباده .

وانفجر الفتى ملتاعا يقول :

— « أكتب على العار أبداً ؟ أأوصم بحياة أمى وجريرة وجودى؟ أينبذنى الناس دون ذنب جنته يداى ويمنعوننى من حياة كريمة أخلقها بكفاحى وجدّى ؟ أيفرض علىّ العيش الحرام فرضاً وأنا أخاف ربى وبنفسى ما بها من لهفة على لقائه طاهر الذيل والسريرة ؟ ألنشأتى فى منبت سوء لا ترجى منى فضيلة ؟ أتضم كل بيوت الكرام أحراراً كرماء ؟ » .

وضحك البائس ضحكة خشنة مريرة خشخشت فى صدره الخرب وهو يستأنف قوله :

— « سلنى أنا يا أبتاه — أنا من بلا الدنيا ورأى من أمورها عجباً . لكم من زهرة غضة طاهرة تتطاول بوجهها البسام بين القبور الموحشة ، ولكم من نبت طفيلى خبيث يندس ظلماً فى روضة غناء ! »

وازداد اضطرابه ، وتلاحقت أنفاسه ، وعلا صوته :

— « والله ... الله ... ربى — رب الكون الذى يعلم عمق حبى له ... وصدق رغبتى فى الصلاح ... ألا يسمعنى ؟ ألا يرحمنى ؟ لماذا يغلق الأبواب دونى ؟ لمادا يؤاخذنى بذنوب أبوى ؟ »

فمسح « الحاج علوان » على الشعر القذر وهمس بحنان :

— « صه يا بنى — صه ! لا تكفر بعدالة الله ... هذه سنته ... وتلك حكمته . وإنه ليبسط للخلق جميعاً فسيح الأمل ... الأمل الرحب

المباح لى ... ولك ... ولكل سائل . ثب إلى رشدك يا بنى ، واعلم ألا مفر من الله إلا إليه . أسلم وجهك له ، وأخلص له الدين ، وترقب فرصة سانحة يهيئها الرحمن لك لكى تعمل خيراً يتقبله منك سبحانه قبولاً حسناً ، فيطهرك به ويزكيك ! »

فقلب الفتى شفتيه فى مرارة وقال :

— « أعمل خيراً ؟ وما حيلتى إليه ويدى خاوية وطريق مقفل ؟ ألأمثالى رجاء ؟ ألأمثالى غاية ؟ »

فجاءه الجواب ملهماً يحيى موات آماله :

— «ليس الخير بذل المال فحسب . فرب عفو عند مقدرة ، أو نصيحة خالصة ، أو معونة فى وقت شدة تسديها للهوف ، خير من مال الدنيا مجتمعاً ! أى بنى . وجوه الخير كثيرة متعددة ، وما اتصل منها بالجسد فمحدود ... وما انتسب إلى الروح فلا قرار له ولا حدود ! »

فأشرقت أسارير الشريد ، ورد مبهوراً كأنما يستمع إلى إيحاء علوى :

— « أأعفو عمن آذانى أو أخدم إنساناً وقت شدة لوجه الله فيرضى عنى ربى ويزيل عن حياتى الغمة ؟ »

— « الله شكور واسع العفو يا فتى ! »

فهدأ الغلام ، وتطلع نحو السماء باسماً وقلبه يخفق . وجفف دموعه بذيل أسماله قائلا :

— « الخير — الخير ... سأحيا من أجله ... سأعيش منذ اليوم متفتّح الذهن ... والبصيرة ... علّ الرحيم يمن علىّ بتلك الفرصة ! » .

ثم أكبّ يقبل يدى « الحاج علوان » فى لهفة قائلاً :

— « زدنى يا أبتاه — زدنى نوراً ! أنا وحيد فى العالم ... ضال ! فقربنى بالعلم من الله ! أنا عطشان لمعرفة الحق ... أشعر بقلبى يتلوى تحرقاً للخلاص من ظلمات الجهل المطبقة عليه ... أرشدنى واكسب بى ثواباً ! » .

فسالت دمعة على خد الشيخ أزالها محنقاً بظهر يده ونهض يسحب الغلام وراءه :

— « على عينى وراسى يا مسكين . ستكون أمامنا فسحة من الوقت بإذن الله ، أما الآن فهيا بنا — هيا بنا إلى الدار نتناول شيئا من الطعام ثم ننظر ما يكون من شأنك . لاتحزن ولا تبتئس ... ربنا موجود ... ربنا رزّاق كريم ! » .

وسأله « الحاج علوان » فى الطريق :

— « لقد غاب عنك أن تخبرنى — ما اسمك ؟ » .

فأجابه ضيفه الشقى :

— « أسمتنى أمى ... « نصيبى » ! » .

فردد « الحاج علوان » فى شجن دون وعى وهو يهز رأسه :

« نصيبى .. صدقت والله التاعسة ! » .

ثم قطب جبينه وراجع نفسه ينهرها ، وحث الخطو مجدًا وهو آخذ بيد الفتى . ولاحت لهما القرية الجاثمة أكواخها ، كل منها فى أحضان أخيه ، كأنما يستمد بعضها الدفء من بعض .

ولما قرع « الحاج علوان » باب كوخه فتحت لهما ابنته — صبية وضاءة الجبين ريانة القد لا تكاد ترفع جفنيها المنسدلين حياء . فانحنت تقبل يد أبيها ثم تنحت لهما تفسح الطريق ، ووقفت إلى جانب فى سكون واحتشام ، على حين انطلق الشيخ يحدثها عن ربيبه الجديد الذى عول على تعيينه خادماً لمسجد القرية .

وقربت لهما الفتاة صاعاً مترعاً باللبن الرائب وخبزاً طازجاً يتوهج كالتبر . فأكلا حتى شبعا ، ترتطم يد « الحاج علوان » بيد ضيفه ، فلا ينفر ... ولا يتقزز .. ولا يترفع .

وعرف « نصيبى » من الشيخ فى سياق الحديث أن زوجه توفيت وهى تضع « هناوه » التى أصبحت كل أمله وفخره فى الحياة ، وخاصة بعد أن توفى من قبل ولده الوحيد « محمد » . وأسر إليه مزهواً أنه أنشأها نشأة طيبة وأن أهل القرية يعرفون لها مكانة الإعزاز والتكريم ، لكنها تأبى الزواج بإصرار وبلا استثناء ، وتعلن دواماً أنها طامعة فى مثوبة من الله جزاء تفرغها لخدمة أبيها العجوز الفانى دون أن يلهيها عنه زوج أو ولد ولم يستطيع « الحاج علوان » أن يثنيها عن

عزمها ، فتركها للأيام تلين من عنادها ، وترطب من فورة حمامها . الزمن أمامها طويل .

وابتسم « الحاج علوان » وهو يختتم حديثه مع « نصيبى » بقوله :

— « هى بعد صغيرة لم تتعد السادسة عشرة ! » .

ولما فرغا من الطعام قام الشيخ إلى صندوق فى زاوية من حجرته ، وبحث فى قاعه هنيهة أخرج بعدها جلباباً له قديماً لكنه نظيف رنقت فتوقه بمهارة . فخلعه على « نصيبى » . فبرقت عينا الشريد ، وبسط ذراعيه المعروقتين يحتضن ثوبه الجديد ، ثم سار فى صحبة شيخه إلى المسجد حيث اغتسل هنالك وارتدى الخلعة الكريمة ملقيا بأسماله فوق كومة القمامة التى كان ينبشها فجراً . وقبع « سيدنا » يرقب الصبى سعيدا هانئاً يعد حبات سبحته .

وكان الوقت ضحى واليوم يوم الجمعة . فسرعان ما أقبل المؤذن الضرير يثبت الرايات الخضر - التى فى عهدته والمطرزة بآيات من كتاب الله — على أعمدة لها فى أرجاء المسجد ، وانحنى يتحسس مواقع قدميه ويبسط قطع الحصير للمصلين ، ثم يفتح باب المنبر ويكنس سلمه . ثم جلس القرفصاء بعد ذلك خارج المسجد يستثير الهواء بذيل جلبابه لتتوهج قطع خشب أشعلها ووضعها على لوح من الصفيح بحجم الكف ، ودس يده فى صدره وأخرج فصين من المصطكا ألقاهما

فى النار . ودار بالبخور يبسمل ويحوقل ، لم يترك ركناً من المسجد إلا أشاع فيه الرائحة الطيبة الفواحة . وأخيراً تربع فى مكانه المعهود قرب المنبر ، وراح يهز رأسه نشيطاً يمنة ويسرة ، قبل أن ينطق مرتلا آيات من « سورة الكهف » .

فأغمض « نصيبى » عينيه المتعبتين ، وتنهد ملء رئتيه يعب من الهواء الطاهر العطر عباً ، تسرى فى بدنه الهزيل قشعريرة من رهبة وسعادة .

وأقبل القرويون فرادى وجماعات ، فاتخذوا مجالسهم يستمعون فى خشوع ، يهب أحدهم فى الفينة بعد الفينة صائحا :

— « الله ! الله ! ياصلاة الزين يا جماعة ... زدنا يا « شيخ عبده » ربنا يكرمك ! » .

ولما نودى لصلاة الجمعة وقف الشريد أبرص بين أصحاء ، ينتفض زائغ العين ... فى ذيل المصلين . . يقف إذا وقفوا ويسجد إذا سجدوا . وشعر بقلبه يعتصر وبروحه يشف وجسده يخف ، حتى خيل إليه أنه حتما حالم أو ميت ، وأن تلك الأصوات التى تتجاوب أصداؤها حوله مرددة : « الله أكبر » ... « ربنا لك الحمد » . ما هى إلا تسبيح الملائكة يحفّون بالعرش فى عالمهم النورانى .

وعظم صوت المصلين مدوياً ... راتباً ... حتى بات هدير بحر أصم أذنيه وأدار رأسه . فانكفأ يرتجف فى ركنه القصى مكوراً نفسه ،

ينكمش بعضه فى بعض كأنما يطمع أن تفلته الأبصار أو تنشق الأرض لتطويه فى ظلماتها طياً ، حتى لا يراه الناس يدنس بيت الله بحقارته وذنوبه . وانسابت دموعه حارة تلسعه وتبلل الحصير الذى يميد تحته كأنه من طين لزج ...

لم يدر ماذا مر عليه من الوقت وهو فى غيبوبته . لكنه لما أفاق ألقى نفسه مستلقياً على ظهره متوسداً فخذ « الحاج علوان » وقد انحنى عليه ينضح وجهه بالماء ويرطب شفتيه بقطرات منه .

وقال له الرجل الكريم :

— « لابأس عليك يابنى أبشر بصفاء روحك ونقاء سريرتك . تالله إنك لمن المتقين ، وقد قال سبحانه فى وصف من آمن حقا إذا ذكر الرحمن أمامه أو تليت آياته : « ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » ابك يا بنى — ما شئت . فالدموع مطهرة ... تغسل أدران القلب ... وتذيب ماران عليه .. فتنقشع عنه غشاوة الظلمات ، ويتوهج له طريق النور ! » .

وكان « نصيبى » مرهفاً أذنيه وعيناه تسخوان ، فأجاب بين الشهيق والزفير :

— « ولكنى أنا — أنا الضال الذى لا يعرف له أباً — أيسعنى الله بين عباده المؤمنين الأطهار ! إلا مكان فى هذا الوجود بين الأخيار ؟ أأطمع فى نظرة عطف من الجبّار ؟ » .

ثم تشبث بيدى « الحاج علوان » مستنجداً ... معولاً ... يدفن وجهه بين الراحتين الكبيرتين ، وينتفض بعنف كأنما ملكته الحمى :

— « صدقنى يا أبتاه .. صدقنى . إن قلبى متعلق بالله — عمرى ! أيام كنت وأمى فى ظلتنا الخشبية التى يتردد عليها الرجال ... كنت أحبه ... وأرهبه ... وأرتجف إشفاقاً عند ذكر اسمه ... لقد أبغضت الشرّ والأشرار ، وانطويت على نفسى لعجز جسمى ... أبكى ملتاعاً يصهرنى الحزن ، وأنا أتنحى عن زوّار أمى لا أملك صدهم عنها . عملت فى الحقول كى أعولها وأغنيها ، لكنى كنت أهوى دائماً مخذولا تحت وطأة الضعف والمرض . وكنت فى الوقت عينه أحب أمى حبًّا يجرى فى روحى مجرى الدم فى عروقى . فترتمى المسكينة فى وحدتنا على عنقى ، تختلط دموعنا وتمتزج وتتمتم وقلبها ينفطر أسى :

— « قسمتى يا بنى — ونصيبى ! »

فربت « الحاج علوان » رأس الشريد بحنان ونهض يحثه على القيام معه :

— « انفض عنك ذكريات الماضى ، واستقبل آملاً الحاضر الذى يبسط لك ذراعيه فى ترحاب . هيا ... يا بنى أعرفك بـ « الشيخ عبده » مؤذن مسجدنا الذى قررت أن ألحقك مرافقاً له ، تعاونه فى أعماله ، وتروى عطش روحك ما شئت من ترتيلاته ! »

فأكب « نصيبى » يقبل يدى « الحاج علوان » ويقول :

— « أطال الله عمرك .. وأثابك خير ثواب ! ولكن لى مطلباً آخر لا تبخل به علىّ .. دعنى يا أبتاه ... دعنى أبداً فى المسجد ... ، ليل

نهار ... أعمل به اليوم كله وأزوى فى ركن منه ما هبط الظلام . منای أن أستظل بظل ربى لا أفارق بيته ومضة عين . روحى آمنة هاهنا وصدرى منشرح ! »

فابتسم الشيخ وهز رأسه موافقاً .

***

وعرف القرويون « نصيبى » خادماً لمسجدهم أميناً فى جد ، نشيطاً فى تأدب ، يلبى إشارة الصغير والكبير ، ويروح ويجىء وعيناه تشعان بريقاً عجيباً كأنما تحيا روحه فى عالم من نسج هواها .

ومر أسبوع هنىء ..

وكان « الحاج علوان » معتاداً الجلوس إلى الناس داخل المسجد ، بين صلاة المغرب وصلاة العشاء ، يفتى فى سؤال أو يفسر حديثاً أو يصلح بين خصمين . فطلب من « نصيبى » ذات عشية قارسة البرد أن يذهب إلى كوخه ليجلب له عباءته .

كانت أزقة القرية خالية حتى من الكلاب الضالة التى انكمشت تستدفىء خلف حائط أو فوق سطح ، مندسة بين الهشيم وأعواد الحطب . وكانت الريح تعوى مسعورة تعربد فى الحلكة القاتمة . فدق « نصيبى » باب الكوخ ، وانتظر يرتجف متلفتاً حوله كأنما يرجو من الزمهرير رأفة . فلم يجبه أحد . فعاود دق الباب . دون جدوى . فدفع الباب بمنكبه ودخل يتحسس طريقه إلى حجرة « الحاج علوان » .

وما كاد يخطو خطوتين حتى تعثر فى كتلة طرية ندت عنها آهة مكتومة . فتراجع « نصيبى » مذعوراً وقد جحظت عيناه ... وانبهرت أنفاسه ... وتقلصت يداه ... وهو يغرس أظفارها فى صدره كأنما يستوثق من يقظته أو ليدفع عن عقله كابوساً ثقيلا يجثم عليه .

فعلى ضوء ذبالة سقيمة تتراقص فى فجوة فى الحائط رآها — رآها عارية تتملص متخبطة بين ذراعى فحل عريض المنكبين كالثور . رآها - هى بلحمها ودمها : « هناوة » ... « هناوة » ابنة شيخه الوقور ... الزهرة الطاهرة الرقيقة التى لا تكاد ترفع جفنيها المنسدلين حياء ... والتى تمض شفتيها القرمزتين وهى ترسل خمارها لتخفى ثغرها احتشاماً ...

وهب الرجل الذى معها مزعجاً ، وألقى بثقله على « نصيبى » يتعلق بعنقه فى استماتة يضغطه بكل قواه . ثم استل مطواته وهوى بها يغرزها فى الحدبة التعيسة . فسقط « نصيبى » مكانه تتحشرج صرخات آلامه فى حلقه وينتفض بدنه .

فصرخت « هناوة » ، يكاد الذعر يذهب بلبها :

— أقتلته ؟ ها هنا ؟ وا مصيبتاه ! وا فضيحتاه ! دعه يا طائش — دعه ... ولا تلمسه بعد ! »

وانحنت على الفتى تتفحص ما أصابه . ففتح الشريد عينيه ورمقها بنظرة ثبتها فى وجهها — نظرة هائلة .. مفعمة بالسخرية والاحتقار ... ،

نظرة تتهم ... وتلعن . فهوت على يديه تلثمهما وهى تشهق بالنحيب :

— «الستر يا «نصيبى» — الستر ! استرنى ولا تكشف أمرى ! ربنا يسترك دنيا وآخره ! »

فلوى عنها رأسه ، وقد زم شفتيه دون أن ينطق بحرف . وتلاحقت أنفاسه وعض على نواجذه مغمضاً عينيه مصطبراً حتى تمر موجة الألم الحاد التى غشيته .

فاسترسلت « هناوة » فى الابتهال ، تضرب له على وتر مس شغاف قلبه :

— « أبى يا «نصيبى» ... أبى ... شيخ هرم هدمته السنون وصحنته البلايا حتى لم يعد يحتمل مصيبة أخرى . لا تفجعه فى أمله .. لا تهدم فى لحظة شاهق أحلامه ! دعه لشأنه يسعد فيما بقى من أيامه . لن تكسب شيئاً بفضيحتى لكنك تكسب ثواباً من الله يغفر زلتى وإنقاذ شيخ عاش شريفاً ناصع الاسم ، من الفضيحة والعار ! « نصيبى » ... اعمل خيراً ... أجبنى ... قل لى كلمة واحدة ! »

فهمهم الغلام ، والدم ينبثق من فمه يسيل على شدقيه :

— « التوبة .. التوبة ! أتعدينى بها ! »

فلاحت هذه البارقة من الأمل للخاطئة حتى تشبثت بها فى لهفة :

— « أعدك ... والله ... ! أعدك ! . سنتزوج مصبحين . أنا وهو . هذا كتاب الله أضعه بين عينى ، وأنا أقسم لك عليه . وليطمس الله

بصرى إن أخلفت وعدى أو بيّت النكث بعهدى . قلها يا « نصيبى » ... قلها لى ... كلمة الغفران ! »

فتململ والعرق يتفصد على جبهته ، وقال :

— « أستغفر الله ! من أنا حتى أقف منك هـذا الموقف ؟ أنا ابن الخطيئة المشبع بالذنوب ... الله يغفر لى ... ولكما ... وللناس جميعاً ! »

ثم جذبها من ذراعها يقربها منه ، وهمس فى أذنها بكلمات متقطعة : خطة انقاذها ... وأشار إلى صاحبها أن اخرج . فأطاع . وطلب قلة الماء وجرع ما فيها دفعة واحدة ، وقبل أن يعيدها إلى « هناوة » انفتح الباب ودخل أبوها .

وكانت تبكى لا تملك استمساكا ، فما علم « الحاج علوان » منها بإصابة « نصيبى » حتى ارتمى عليه ملتاعاً ... يتحسس جراحه فى الظلام ... ويهتف من قلب مكلوم :

— « كيف بالله ... كيف حدث ذلك ؟ أخبرينى يا بنتى ! « نصيبى » ... « نصيبى » ابنتى حبيبى ! » .

فقام الشريد يتحامل على مرفقيه وقد بلغت منه الروح الحلقوم ، وهمس يعلو صدره ويهبط فى جهد وإعياء :

— « لص يا أبتاه ... لص اقتحم على ابنتك الدار متستراً بظلام الزوبعة وضجيجها ، وفاجأته أنا عند حضورى لأخذ عباءتك ،

وحاولت القبض عليه فطعننى بمطواته وفر هارباً . لا ضير يا أبتاه ... الحمد لله على سلامة ابنتك ! »

وترنح رأسه على كتفه ... وسكن ...

فمضى « الحاج علوان » حثيث الخطا ... ملهوفاً ... يحوقل ... ويستغفر ... قاصداً مكان السراج ليتبين على ضوئه ملامح ربيبه ، وما إن عاد بسراجه وألقى نظرة على الغلام ، حتى وجده قد مات وعلى شفتيه ابتسامة هانئة مطمئنة .

لقد فعل خيراً ...

فى العلالى ..

وضعت « فاطمة » ذراع التليفون مكانها وهى تبتسم . أخيراً ... عمل ؟ الحمد لله . شهر ... ثلاثون يوما وليلة ... طوال عراض ... وهى عاطلة لاتجد من تخزه بابرة ، أو تسهر على راحتها فى ولادة ، أو تكيل له الدواء والعقاقير بالعيار . ماذا حدث للناس ؟ موجة من تدبير لفتهم كلهم ، فلملموا أنفسهم وانزووا فى بيوتهم يخدمون أنفسهم بأيديهم . اقتصاد فى كل ناحية من نواحى الحياة حتى المرض ... مد التقشف أذرعه الملتوية كالأخطبوط يطويه أيضا ! النهاية .. هى الآن مطلوبة .

شعرت « فاطمة » بقشعريرة سعادة تهز أحشاءها . فخرجت من دكان البدّال حيث كانت تتحدث ، ومشت إلى بيتها فى خطوات سريعة نشطة ، وألقت بالتحية ضاحكة السن إلى كل من قابلها من أهل الحى : « حاج رفاعى » بائع الكنافة والقطائف ، و « المعلمة سونة » صاحبة القهوة على رأس الحارة ، و « المعلم عضمة » الجزار ، و « أم سكر » فى مكانها المختار على الطوار وأمامها قدر الكروش والأكارع على أنواعها : ضانى وعجّالى وجلى . حتى الولد « سيد » الأعمش حيّته « فاطمة » ونفحته قرشاً من السبعة قروش التى معها وهى تغمغم :

— « مسكين » !

وفى البيت لملمت ثيابها — لأن الطلب قال خدمة ليل نهار — ودستها فى حقيبة عتيقة كانت لأبيها عامل التذاكر بالسكة الحديدية — ألف رحمة عليه . وقبّلت خد أمها المكمش ودست فى يدها خمسة قروش واحتفظت بقرش للترام . وهرولت تقفز درجات السلم مستبشرة ودعوات أمها تلاحقها :

— « والنبى يارب أفرح بك عن قريب ... يافاطمة يابنتى » !

فهتفت من فوق كتفها مداعبة :

— « إن شاء الله يارب » !

ثم أردفت جادّة :

— « انتبهى لنفسك جيداً فى غيابى يا أمى يا حبيبتى . سأرسل لك الآن زوج أكارع ضانى تسلقيته وتشربين مرقته وتأكلينه ... لين لأسنانك . واطلبى كل ما يلزمك ... خبز ... سكر ... شاى ... لا تهمك النقود . أهل الحى طيبون ولن يرفضوا لك طلباً ، خاصة وقد عرفوا أنى أعمل وأكسب هذه الأيام » !

وهرولت لا تلوى على شىء .

— « النبى يارب أفرح بك عن قريب ... يا فاطمة يابنتى » !

ليت هذا يحدث — تتزوج ... فتريح وتستريح ... تريح أمها من غلب غسيل الثياب فى البيوت ... فهى طبعا ستأخذها معها وتنفق

عليها لأن زوجها سيكون ... سيكون ... إن شاء الله يارب ... سيكون غنياً لا يمسك يده عنها .

نزلت « فاطمة » من ترام « الزمالك » متمهلة تتأنق فى حركاتها. وركنت حقيبة ثيابها جنبها وأغمضت عينيها تعب من هواء الحى الأرستقراطى النظيف . الله ... حياة حلوة ! لم يشكون مرضاً أو يحملون همًّا أهل هذا الحى ؟ عجيبة . . !

وهزت رأسها وراحت تنبش بهمة فى حقيبة يدها عن الورقة التى كتبت عليها العنوان . فلما قرأته مرتين ووعته جيداً ، أشارت إلى سيارة أجرة مالبثت أن وقفت أمامها والسائق يبتسم لها مرحباً — آملا ، فكادت « فاطمة » تقع مغشياً عليها فجأة من إحراج . أين النقود تدفع له حقه ؟ فخفضت رأسها وتمتمت ببعض كلمات اعتذار . وحملت حقيبة ثيابها وسارت على قدميها — وشتائم السائق ولعناته تنصب حولها تحرجها كأنما يقذفها بحجارة . ماذا كان فى وسعها أن تفعل غير ذلك ؟ أتركب حتى إذا أوصلها طلبت من أهل البيت أن يدفعوا هم ؟ ماذا يظنون بها حينئذ ؟ الفقر جَرَب يفر منه الناس . ربما نفروا منها واستغنوا عن خدمتها . وحتما يحتقرها خدم البيت . فلا يكون أمامها حينئذ إلا الفرار ، لأنها جربت من قبل عناد الخدم واحتقارهم الصامت المتعالى وبين يديها مريض .

سارت « فاطمة » من شارع إلى شارع حتى قادها العنوان إلى قصر شامخ فى بقعة نائية على النيل . فاقتربت من البواب النائم فى ظُلَّتِه

توقظه مترفقة . ففتح عيناً يتأملها وهو مضطجع بعظمة على حاله . وتحملت « فاطمة » العين الثقابة تقيسها طولاً وعرضاً وغمغمت بصوت صغير :

— « أنا ... أنا المرّضة » !

وتنهدت بارتياح عند ما أشار إليها بإصبع من فوق كتفه أن ادخلى . وقابلتها فى الردهة امرأة ذكّرت «فاطمة» بعيد « شم النسيم » إذ كان كل ما فيها يشبه السمكة المقددة . رمقتها بنظرة من عينين جاحظتين لا تطرفان كأنهما من زجاج وهى تلعق شقاً لا شفاه له . وقالت بصوت رفيع حاد :

— « ورائى .. سيرى ورائى » !

وأوصلتها إلى حجرة فسيحة فى الطبقة العليا وخرجت وسحبت الباب تغلقه خلفها .

تأملت «فاطمة» الفراش الوثير الثمين ، وأصص الورود ، واللوحات الزيتية الرائعة ، والتماثيل الدقيقة الصنع . ما هذا كله ؟ أين المريض ... أو المريضة ؟

ووجدت على منضدة صغيرة إلى جانب صينية حافلة بصحاف طعام . فرفعت الغطاء عن إحداها لتجد نصف دجاجة يتوهج وسط شرائح من البطاطس محمرة . ولما كانت ضعيفة أمام هذا الصنف بعينه وطالما حلمت به وهى تعض رأس فجلة ، فقد التقطت قطعة بطاطس ذهبية

...تسمرت « فاطمة » مكانها وعيناها فى عينيه

ألقتها فى فمها . فما راعها إلا والباب يفتح وتطل منها الفسيخة تعلنها — كأنما كانت تنظر إليها من ثقب الباب :

— « نعم ... نعم ... كلى واشبعى ... هو لك — الأكل . أهل البيت كلهم على سفر فى أوربا . لا يوجد هنا إلا « سيدى » عليك أن تحقنيه كأمر الطبيب كل ثلاث ساعات من المغرب إلى شروق الشمس » !

واختفت .

فشعرت « فاطمة » بخجل قاس وشدقها منتفخ ، فطأطأت رأسها ، لكنها لم تلبث أن غلبها روحها المرح فقهقهت ضاحكة ، وأكبت تأكل حتى شبعت ...

وقامت إلى ثيابها ترتبها ثم هبطت إلى الحديقة تتسلى . سارت على غير هدى ويداها وراء ظهرها . لم يستأجرونها النهار طوله ما دام العلاج ليلا ؟ هكذا الأثرياء ... لا تهمهم النقود ولا بعثرتها ... مالها هى ... أحسن هكذا ... إنها فى غاية الحاجة إلى نقود ... أى نقود ... نقود كثيرة ... كثيرة . . آه لو كانت صاحبة نقود — وتلفتت حواليها — لم لا ؟ « لواحظ » و « أنوار » زميلتاها أيام « قصر العينى » تزوجتا ... وممن ؟ كل واحدة بمهارتها أوقعت الرجل الثرى الذى مرّضته ... إنهما ليستا بأجمل منها — وتحسست شعرها وصدرها — والنبى حلوة ... وممشوقة .

وصاحت « فاطمة » بفرح عند ما اكتشفت حوضاً بأكمله تتماوج فيه رؤوس مخملية فواحة . فهوت على ركبتيها تحتضن الورد وتدفن وجهها بين أوراقه الحمر وتمرغ خدها فوقها ، ثم تغمض عينيها وتعب من أريجه المسكر . وقامت تقطف طاقة لنفسها ، وتمد ذراعها تنتق تلك الوردة وتتجاوز عن تلك عند ما رأته ... صاحب البيت .

كان مستلقيا على ظهره وسط حوض الورد ، متوسدا ذراعيه وقد عقدهما تحت رأسه .

تسمرت « فاطمة » مكانها وعيناها فى عينيه . وفجأة ابتسم وهبّ جالساً :

— « أنت الممرضة الجديدة ... أليس كذلك » ؟

وقبل أن تجيبه ولو بإيماءة قال بسماحة محببة مست شغاف قلبها :

— « أهلا وسهلا ... آنستنا » !

كان مثالا للصحة والشباب — إلا من بعض شحوب ... وربما ... ربما ... بعض البريق المحموم فى عينيه . تأملته « فاطمة » بدقة وهو يثب واقفاً ينفض عن سرواله الأمريكى الأزرق حبات من تراب علقت به . ماذا يمكن أن يشكو منه هذا ... هذا الحصان ؟ أحست « فاطمة » بمرارة تملأها .. ياللحظ يارب ! لايمكن أن يحتاج هذا ... هذا الفحل إلا ... إلا لطعام كثير يسرى فى هذا الكيان ... الرائع !

تأملته فى صمت مستسلمة . وكان منهمكاً فى قطف طاقة ضخمة لها من الورد الأحمر .

— « أتحبين الورد ؟ » .

فلم تجبه — بل لم تسمعه . كانت تفكر فى أجرة الشقة المتأخرة شهرين ... وجلباب أمها المرتق عند الكتف .. والقطن الذى يطل من مواضع كثيرة فى المرتبة اليتيمة ... واللحم اللذيذ الذى لم تذوقاه من عيد الأضحى . ودمعت عيناها . تنتظر مصطبرة شهراً طويلاً علّ عمل يبين لها ، ثم يكون نصيبها ذلك الشاب المتعافى ... الوسيم ... هى لا تنكر ذلك — لكنه رقيع ... رقيع .. لابد أن ما يؤله لايزيد عن إصبع قدمه الصغيرة أو جرح طفيف أصابه أثناء تجواله أو صيده فى حديقته الغناء فخشى عليه من تلوث فاستأجرها لتخزه إبرتين .. ثلاث إبر « بنسلين » .

— « أنا أسألك : أتحبين الورد أم تفضلين عليه الفل والياسمين ؟ » .

سألها ثانية وفى صوته شىء من عتاب — دهشة .

فأسرعت تقول :

— « كله جميل ... أعنى ... أننى أحب كل الورود والأزهار ! »

فدس فى أحضانها طاقة الورد وقال لها :

— « تفضلى ... أنت ضيفتنا ... الحديقة كلها تحت أمرك ! » .

وابتسم ابتسامة ضاء لها كل وجهه ... الوسيم .

فنسى قلب « فاطمة » فى نشوته أن يخفق ، وعيناها متعلقتان بالرجل فى نظرة حالمة وعقلها مجنون :

— « الله ... وجهه صاف ... جميل ! لا أثر لتجعيدة أو تقطيب !

بودى أن أمسح على جبهته وأشم شعره الـ ... الفاحم هذا ! حلو جداً ... الله ! عيشتهم نعيم هؤلاء الناس ! » .

ثم تنبهت فزمت حاجبيها تنهر قلبها :

— « مرحى ... مرحى ! جئنا نحب أم نكسب لقمة العيش ! »

فسألها متعجباً :

— « مالك ؟ تضحكين وتعبسين فى ثوان ! »

وضحك ، وضحكت .

وألهاها الوقت وانفتل دون أن يشعرها بذلك .

ونظرت « فاطمة » إلى ساعتها ثم إلى الشمس التى هوت مضرجة فى أحضان نخلتين بعيدتين ، وصاحت وهى تمسك بذراعه تسحبه ناحية البيت :

— « هيا ... ميعاد الإبرة الأولى ! »

فصاح محتجاً :

— « لا ... لا ! لم يحن بعد ميعادها . أود أن أتحدث معك ... تعالى .. تعالى اجلسى هنا ... لنأكل أولا ! »

وتناولا العشاء معاً فى الشرفة الواسعة المطلة على الحديقة . ذهب بنفسه إلى المطبخ وغاب دقائق عاد بعدها يحمل صحنين عليهما ألوان من الطعام . منتهى الظرف والتواضع ... والنبى إننى ... إننى أحبه ! ليتنى أعجبه ... شاب ... وغنى ... وظريف . ومتواضع ... فرصة العمر ! لن أخجل

إن زارنا ... طبعاً شقتنا قرف ... حجرتين علبتين تماماً ودورة مياه .. أف ... أعوذ بالله ... شركة مع الجيران ورائحتها دائماً كريهة تعمى ... ولكن ... هو متواضع ... وإن أحبها ... آه . إن أحبها فكل شيء ... كل شيء يهون !

وامتدت بهما الجلسة ، وتحدثا فى كل موضوع حتى أدار هو دفة الحديث إلى الحب .. والزواج .. وغطى يدها بكفه الكبيرة الخشنة وسألها هامساً :

— « فاطمة ... أتؤمنين بالحب من أول نظرة ؟ »

فعربد قلبها وغمر الدم وجهها . النعيم ... النعيم .. قربها . أتراه أحبها ؟ يقظى هى ياناس أم نائمة تحلم ؟ صبرت والله يا « فاطمة » يا بنت « نفوسه » ونلت ما تمنيت ... لا بد أن تلبس أمها ثوباً حريريا وحذاء لامعاً ليلة الفرح ... وتمشط شعرها ولا تزوم لعصابة الرأس ... لابد أن ترفع أمها معها فوق ... فوق »

ونسيت أن تجيبه عن سؤاله .

فمال ناحيتها يضغط يدها :

— « فاطمة .. فاطمة ... ألست معى ؟ بمن تحلمين ؟ »

ثم زم ما بين حاجبيه وسألها وفى صوته رنة حزن :

— « أهناك . شخص آخر ؟ »

فهبت ملسوعة :

— « شخص آخر ؟ لا ... لا ... أبداً ... أنت أول ... »

وغلبها الحياء فعضت شفتها وسكتت .

فقام إليها يحتويها بين أحضانه :

— « فاطمة ... حبيبتى ... وجدتك ... عثرت عليك أخيراً يا ... جوهرتى ... ! »

فصدته عنها بلطف . لا يجب أن يظن بها ... شيئا ... يجب أن يعلم أنها ليست ... ليست من أولئك البائسات .. فلئن ظنها سهلة ... منقادة .. ولكن يجب ألا تصده بخشونة .. ربما ... ربما نفر بلاعودة ... تلين وتصد ... وتلين وتصد ...

فركع عند قدميها :

— « لم تصدينى ؟ ماذا بك يافاطمة ؟ أتخافين منى ؟ أقسم لك إنى أحببتك ، وقد ظننت أن قلبك قد تفتح لى مثلما تفتح لك قلبى ... هكذا ... بغتة ... بعد طول حيرة وحرمان ... »

فلم تجبه . بل راحت تفرك كفيها فى عصبية وكلمة « الزواج ... الزواج ... » تشع من كل شىء فيها ... من قمة رأسها إلى أخمص قدميها .

فألقى برأسه إلى الخلف يقهقه ويصيح بصوته الجهورى ويداه على خاصرتيه :

— « لقد فهمت ... فهمت ! فتاة طيبة ... شريفة مثلك لا تفكر فى الحب إلا مقرونا بالزواج ! »

فرفعت إليه عينيها الواسعتين فى لهفة ...

فقال :

— « هو ذاك ... والله أملى هـذا ... منای ... ما كنت أرمى إليه فى حديثى معك ... »

ثم ربت كتفها بنعومة :

— « أتشكين فى حسن نيتى ؟ أتخافين منى ؟ تعالى ... تعالى ... »

وأمسك بكتفيها يجذبها نحوه . فاستكانت إليه وهو يلف ذراعيه حولها ... اللحظة الحاسمة ... فرصة العمر ... يا رب ... يا رب تجعله قسمتى ونصيبى ! يا رب ... يا رب تحل عقدة لسانه ! آه ... سيطلب يدها الآن ... الآن .. لابد .. فالرجل عيناه تفضحانه هكذا دائماً ... آه ... القصر ... القصر ... والحديقة ... ستجعل أمها تعيش فى حجرة بالدور الأعلى حتى تتمتع بالمنظر الرائع الممتد أمامهـا ... حوض السـباحة ... والأشجار اليانعة ... والزهور ... زهور على كل لون ! وهى ... هى لا تطلب لنفسها شيئاً ... كثيراً ... طبعاً ستكون صاحبة كل شىء ... والله يكفيها أن يكون « سعد » لها ... « سعد » ... حبيبى ... نصيبى ... هى تحبه والله ... حباً صادقاً عميقاً تملك من كيانها إى والله ... هكذا والله ... فى تلك المدة القصيرة حباً ملك عليها مشاعرها ووجدانها ... أما أختها المتزوجة « خديجة » فستدعوها وأولادها لزيارتها مراراً .. مسكينة « خديجة » زوجها حلوانى فقير على قد حاله ... ستطعمهما كلما جاءتها ديوكاً رومية ولحم ضأن ... وطبعاً

تعطيها غرارة أرز من خزين البيت وزجاجة أو اثنتين زيتاً ... وتدس فى يدها جنيهاً كاملا . طبعاً سيكون عندها الكثير ... جنيهاً كاملا أو حتى جنيهين ... و « أم سكر » بائعة الكروش ... والنبى امرأة طيبة ولن تنساها ولن تنسى فضلها عليها . طالما نفحتها بكرش أو زوج أكارع وصبرت على نقودها لا تفضحها فى خروجها ودخولها مثل الآخرين .. ستدعوها مرة لزيارتها وتفرجها على قصرها ... وعلى جنينتها ... وتركبها معها فى السيارة الخضراء الفارهة التى لمحتها فى الحظيرة والتى ستكون طبعاً تحت أمرها ... لتعود « أم سكر » مذهولة إلى أهل الحى تحكى لهم عن « فاطمة » والخير الذى تستحم فيه « فاطمة » . . والمال الذى تلعب به « فاطمة » لعباً ...

وهمس « سعد » فى شعرها نشوان :

« فاطمة فاطمة ... أتتزوجينى يا منى قلبى ... يا نور عينى ؟ » .

فأمسكت بذراعيه تترنح والدنيا تلف بها وتدور .. أغرودة يا حبايب .. من يحب النبى يصلى عليه ... يا لفرحك وهناك يا أمى . بنتك « فاطمة » فتحت لها طاقة فى السما ... « فاطمة » بنتك بانت لها ليلة القدر !

وكرر « سعد » سؤاله بلهفة .

فدست « فاطمة » رأسها تحت جناحه تفرغر كالحمامة :

— « أرضى بك ... أرضى بك يا .. يا ... »

ترى ، ماذا تنادى بنت الأكابر زوجها ؟ أتقول له يا « سى سعد » ... مثلا .. كما هى العادة فى حيهم ؟ يا للحيرة يا رب !

وكان «سعد» يمطر وجهها وشعرها بالقبلات فى انفعال ، وأنفاسه مبهورة مضطربة .

فأخفت وجهها عنه براحتيها فى دلال ، وهى تتملص منه ضاحكة :

— « كفى .. كفى ... هلا تركت لباكر شيئاً ؟ »

فصاح بحماس :

— « باكر والله العظيم أزور أمك أخطبك منها رسمياً . أو نعقد القران ... ماذا ننتظر ؟ المال موفور والحمد لله ألديك مانع ؟ »

ولكن « فاطمة » لم تكن معه .. ليلة الفرح لابد ألا يكون لها مثيل ... لا أذن سمعت ولا عين رأت .. طعام كثير ... وضيوف من الأشراف ... وراقصات .. أشهر من خطت على مسرح ...

والتقط عقلها الشارد الكلمتين الأخيرتين :

— « ألديك مانع ؟ » .

فهبت تصيح :

— « لا ... لا ... طبعاً لا مانع ! »

فخلع نشوان متيماً من إصبعه خاتماً ذهبياً ألبسها إياه :

— « أقسمى ... أقسمى لى برضاك ! »

— « أقسم ... أقسم ... » .

فهوى بشفتيه على يدها التى تلبس خاتمه يوسمها قبلا .

وفاجأتهما السمكة الملحة فى تلك اللحظة . خرجت إلى الشرفة — حيث كانا يجلسان — وعلى ذراعيها طفل رضيع . فصاحت « بفاطمة » وهى تدفعه فى أحضانها :

— « هاك سيدى ... على أتم استعداد لأخذ الإبرة الآن ! »

فسقط فك « فاطمة » من شدة الدهشة ووقفت مذهولة تنقل بصرها بين « سعد » والطفل . وبلعت ريقها بصعوبة وسألت « سعد » :

— « من ... أنت ؟ »

فأجابها بكل بساطة :

— « أنا البستانى ! »

وعادت الشاردة..

... وألقت بنفسها على صدر « قناوى » لحظة فتح لها الباب . ودفنت وجهها فى كتفه تمرغه وتعول . وانغرست أظافرها فى لحم ظهره وهى تحتضنه بقوة كأنما لا تصدق أنه حقيقة لا خيال وأنه هنا .. واقف أمامها ... تستطيع أن تلمسه ... بل تشعر بالطمأنينة وذراعاه تحيطان بها — لو فعل . ولكنه لم يفعل . لم يأت بحركة . تسمر مكانه فى ذهول . فرفعت رأسها وراحت تدق بها صدره كأنما تهيب بضلوعه أن تنشق وتخفيها . إلى هذا المدى كان خوفها — رعبها .. خوف ... ورعب ... ومطاردة ... وفرار ... إلى هنا — إلى الأمان . ولكن لا ! لن تطمئن حتى يكلمها « قناوى » ... يحتويها فى أحضانه ويقبلها ... يمسح خدها بيده الكبيرة الخشنة ، ويدير ظهره يتلقى عنها بجرمه الفحل لطمات الدنيا .

— « قناوى . . . »

وارتعش صوتها فى ابتهال .

فانتفض « قناوى » وهوى بشفتيه يمطر شعرها بقبلاته واحتضنها بخشونة يهصر خصرها النحيل حتى كادت عظامها الرقيقة تتهشم . فتأوهت فى صمت تعض شفتها فى سعادة بالغة تستعذب الألم ، وهدوء

عجيب يسرى فى دمائها كالخدر . فدست رأسها فى أعماق أحضانه كما تفعل الهرة الصغيرة بجنب أمها . فأراح « قناوى » رأسه على رأسها وأغمض عينيه .

حينئذ - وحينئذ فقط - تنهدت بارتياح وعرفت أنه غفر ونسى .

فمنذ صاحت به ساخرة :

— « ماذا تقول ؟ لن تسمح لى بالسفر إلى طنطا ؟ بأى حق ؟ أنت ابن عمى - نعم . ولكن لا تنس أنى سيدة نفسى أفعل ما يحلو لى وأنك لا تعلو عن أجير - خادم تعمل عندى ! أنسيت ؟ »

فأجفل « قناوى » وارتعش صدغه كأنما صفعته وتململ وقد خاف أن يبلغ سمعها جنون قلبه ، وغمغم متلعثما :

— « لا - لم أنس ! »

ودفع باب الكوخ بقدمه يفتحه وخرج .

ولم تره إلا الساعة — منذ شهر . فقد سافرت مبروكة إلى « طنطا » مع عمتها ، وكانت عمتها قد جاءت إلى قرية « محلة موسى » لتعزية « مبروكة » فى وفاة أبيها ، ومكثت عندها أربعين يوماً ، وعت خلالها بعين لاقطة كل كبيرة وصغيرة فى حياة الفتاة التى أضحت وارثة لا يستهان بها .

وكانت « ست عيوشة » - عمتها - ذات اللسان الذلق بيضاء تخفى عمرها تحت طبقات من المساحيق . فقالت ترغب « مبروكة » فى السفر وحواجبها غمازة :

— « تعالى معى يا نور عينى — تعالى ! روّحى عن نفسك بعض الوقت — أوعيشى عندى ... خير لك ! ماذا دهاك ؟ أتحيين وتموتين فى هذه الخربة التى تسمينها قرية ؟ أليس هناك إلا الأرض وزراعتها وحرثها ثم : سعر القمح ، وسعر القطن ، وسعر الذرة ؟ ماذا تظنين يامسكينة ؟ » وقرصتها فى فخذها قرصة ذات مغزى : « تعالى يا حبيبتى — تعالى مع عمتك تفرجك على الدنيا ونعيمها ! »

ولقد أحبت « مبروكة » حياتها الجديدة فى « طنطا » ؛ كان كل شىء حولها شائقاً فى جدته : النور الكهربائى ، والعربات التى تسير وحدها لا يجرها ثور ولا جمل ولا حمار ، والماء الموفور أبداً فى أنابيبه لايضطر المرء إلى جلبه من الترعة ، أبهجتها السيارات بنفيرها الموسيقى وشكلها الخلاب ، وأرعبتها الطائرات السابحة فى تعاظم فوق الرؤوس بأزيزها وهديرها ، وأزعجها رنين التليفون فى حجرة « صفوت » ابن عمتها ، ووقفت دهشة ترقبه وهو يرفع « الذراع السوداء » يلصقها بأذنه ثم يتحدث فى الثغرة إلى شخص غير مرئى

وكانت « ست عيوشة » تستأجر مسكناً يشرف على شارع رئيسى فى المدينة ، تقوم على جانبيه أشجار باسقة مزدهرة تتعانق ظلالها وتترامى إلى مسافات بعيدة . فإذا استقرت الريح أو هبت فجأة من الشمال نسمة نشطة ، تساقط الزهر الأحمر الجميل يغطى الأرض كبساط حريرى عبق ، ولما كان الشارع دائم الحركة والزحام ، تسير فيه السيارات الفاخرة تتشاحن مع مركبات الخيل التى تتنافس مع عربات الباعة الجوالين ،

وهذه تزاحم بدورها الدراجات ، وتلك تشاغب المارة — فقد وجدت « مبروكة » فيه مرتعا خصبا لتسليتها . فتهرع إلى النافذة تلصق جبهتها بزجاجها وتحملق معجبة بكل ما يدور تحتها . وكثيرا ما أشارت لبائع العرقسوس بثيابه الزاهية وصاجاته الرنانة أن يصعد إلى المسكن ، فتفتح من الباب جانباً وتمد يدها من خلفه تشترى كوباً من الشراب السائغ تشربه متلذذة على مهل ، والرجل يغمز بعينه يحيي الريف فى جمالها :

— « يا نور النبي ! يا قلب هلت علينا ... ريح الحبايب بكينا ... اشرب الحلو يا حلو ! » .

ولكن كان هناك بائع وجدت « مبروكة » فى مراقبته تسلية عظيمة كل يوم وقت الظهيرة ، وهو بائع الأطعمة المطهوة يبيعها للعمال وصغار الموظفين وللبائعين أنفسهم عندما يتقهقرون إلى جوانب الشارع يرتمون منهوكى القوى فيتمطّون ويأكلون . حينئذ يدفع عربته بتؤدة وخيلاء — وقد خلا الشارع إلا منه — يعدد المشهيات التى يحملها داخل صندوقه الزجاجى مترنماً :

— « سألتها : أنت طعمية ؟ غضبت وقالت : من قال ؟ أنا كباب ، كباب يا ولد ! وسألتها : أنت طماطم ؟ غضبت وقالت : من قال ؟ أنا جواهر ، جواهر يا ولد ! » .

وما يلمح شارياً حتى يصفق بيديه ويفركهما مرحباً ويضع عن ظهره المقعد الخشبى الذى يحمله ويربته وهو ينادى :

— « أهلا وسهلا ، أهلا وسهلا ! تفضل يا « أسطى رجب » ! أنا خدامك ! بماذايأمر سيدى ؟ لن يكون والله غداؤنا اليوم إلا باذنجاناً مقلياً يأكل المرء أصابعه وراءه ! » .

ويعمل وهو يتكلم لا ينتظر جوابا . فيشق جانب رغيف ويحشر فيه الطعام حشرا ويدس معه خيارة مخللة أو اثنتين ثم يرش فوقه من التوابل ما يستخرجه من علبة صفيح ، وقبل أن يفيق « أسطى رجب » أو يتنبه يجد نفسه يقضم هانئاً ويزدرد طعاماً لم يختره ...

وعلى الفور ينساه البائع ليلتفت إلى غيره :

— « من أرى ؟ المعلم « عزوز » ؟ أشرقت الأنوار وهلت الأقمار يا معلم ! » .

ثم يميل على أذنه يهمس وقد قطب ما بين حاجبيه كأن ما يقوله سر وطنى خطير :

— « الطعمية ساخنة ولذيذة تحرق الأصابع وتنادى على الآكلين ! » .

ويعتدل رافعاً عقيرته بالغناء وهو يتمايل راقصاً على الجانبين مع النغم :

— « ناديت من شوق الحبيب قالوا لى راح
لامشى أنوّح فى كل بلد غريب سوّاح ! »

ويتناول « المعلم عزوز » غداءه طعمية ساخنة لذيذة ...

فتضحك « مبروكة » لمهارة الرجل فى تحايله على الرزق ، حتى تستلقى على قفاها وتسيل الدموع من عينيها . فتربت عمتها كتفيها وتقول لها وهى تتأود بعنقها يميناً وشمالا :

— « وهل هـذا شىء بجانب ماسترينه من أعاجيب تخلب الألباب ؟ » .

فتبرق عينا « مبروكة » فى فرح ساذج وتصيح :

— « أحقا ياعمتى ؟ » .

فتمض هذه شفتها فى غمزة بليغة وتقول :

— « صبرك علىّ » !

وجاءتها يوما بنبأ أخرج « مبروكة » من وقارها الريفى ونسيت تحفظها وقفزت إلى عنق عمتها تحيطها بذراعيها وعيناها تومضان وصوتها يرتعد اهتياجا :

— « أصدقاً تقولين ياعمتى ؟ أحقاً تعدينى ؟ أتأخذيننى لأجوب الشوارع وتشترى لى ثوباً هفهافاً قصيراً وزوجاً من الأحذية كبنات البندر ؟ » .

فأجابت « ست عيوشة » :

— « عيون « عيوشة » لك ياحبيبتى ! فستان قصير... اثنين ... ثلاثة .. كما تشتهين ! » .

وذات عصر أركبتها معها فى مركبة تبخترت بهما عابرة « ميدان

الساعة » إلى شارع « المديرية » حيث الدكاكين صغيرة متلاصقة يجد المرء فيها كل شيء من حرير هندى فاخر إلى حيهان ومصطكا جاوى .. ولقد برّت « ست عيوشة » بوعدها ، فاشترت « لمبروكة » الفستان القصير وزوج الأحذية والشال الحريرى الهفهاف . واختارت هى زجاجة عطر نفاذ ومشطاً مقوساً كنصف دائره حليت حافته بحبات من اللؤلؤ الزائف لتزين به شعرها ، وكذلك بعض قطع الصابون الملون المعطر قررت بينها وبين نفسها متى عادت إلى البيت أن تدسها فى كومة ملابسها حتى تتسرب الرائحة الجميلة إليها

وكطائر جذلان أسكره الفرح مايحط على غصن حتى يتركه إلى غصن ، راحت « مبروكة » تتنقل بين الحوانيت لاتلق بالا إلى أصحابها ، بل تنحنى محتضنة الخزائن الزجاجية تتأمل محتوياتها بعيون راقصة ، وتصيح فرحة إذا ما أعجبها شيء .

وكانت عمتها تسايرها فى نشوتها وترميها بنظرة طويلة غامضة . أما ابنها « صفوت » فقد أطلق صفيراً طويلاً يعلن إعجابه بـ« مبروكة » وهى تدخل البيت مع عمتها بخطوات ظافرة تحمل لفائف المشتريات .

وكان « صفوت » شاباً رقيعاً سقيما يسعل دائماً سعالا قصيراً خشناً . ولم يكن له عمل معروف يتقوت به ، وإن لم تخل جيوبه قط من النقود ، كثرت أو قلت . أما حاجباه فكثيفان يظللان عينى فأر ضيقا ومكرا ، على حين تعوج فمه إلى جانب ابتسامة لاتغيب ، كأنما طبعت على وجهه ، فيها سخرية وفيها قساوة ، تفتر عنها شفتان تناهت غلظتهما ، ويظل

يتلمظ بهما يعلقهما بين الفينة والفينة وريقه يتحلب كأنما هناك أبداً ما يحرك شهيته .

وكانت « ست عيوشة » تختلى معظم نهارها فى حجرة الاستقبال بنساء من مختلف الأعمار وإن تشابهن فى زينتهن المفرطة وثيابهن فاقعة الألوان مكشوفة الصدر والذراعين . فتظل معهن فى دق الدفوف وترديد الأغانى ، و « مبروكة » فى عجب من أمرهن لاتدرى سببا لما ترى من مظاهر الفرح التى لا نهاية لها . أما « صفوت » فكان يشرك أمه فى اجتماعاتها أحياناً يعزف على عوده ، وينطوى على نفسه بجسده الضامر القمىء فى الردهة أحياناً أخرى ، لا يفى عن مطاردة « مبروكة » بنظرات منهومة خرساء .

أما « مبروكة » فألهتها أثوابها وعطورها وأمشاطها عما يدور حولها . فما تزال تخلع ثوباً لترتدى آخر ، وتصفف شعرها خصائل متساوية إلى جانب على نمط مخصوص ، ثم تهدم مابنت وتعقصه إلى أعلى وترشق فيه المشط ذا الدائر اللؤلؤى مقلدة « البندريات » اللاتى رأت صورهن فى المجلات ، حتى إذا أعيتها الحيل فى تنسيق هندامها والوصول بزيها إلى مرتبة سابياتها اقتحمت على عمتها حجرة الاستقبال تسألها المعونة . أيناسبها هذا اللون الفستقى الشاحب أم يضفى الوردى بهاء على وجنتيها أليق بها ؟ ترى ، أطال الثوب عما ينبغى أم قصر ؟

فتتوقف النساء عن الغناء ويحملقن فيها وهى تخطر أمامهن تدور حول نفسها ، تروح وتجىء ، وقد وضعت يداً على خاصرتها وراحت

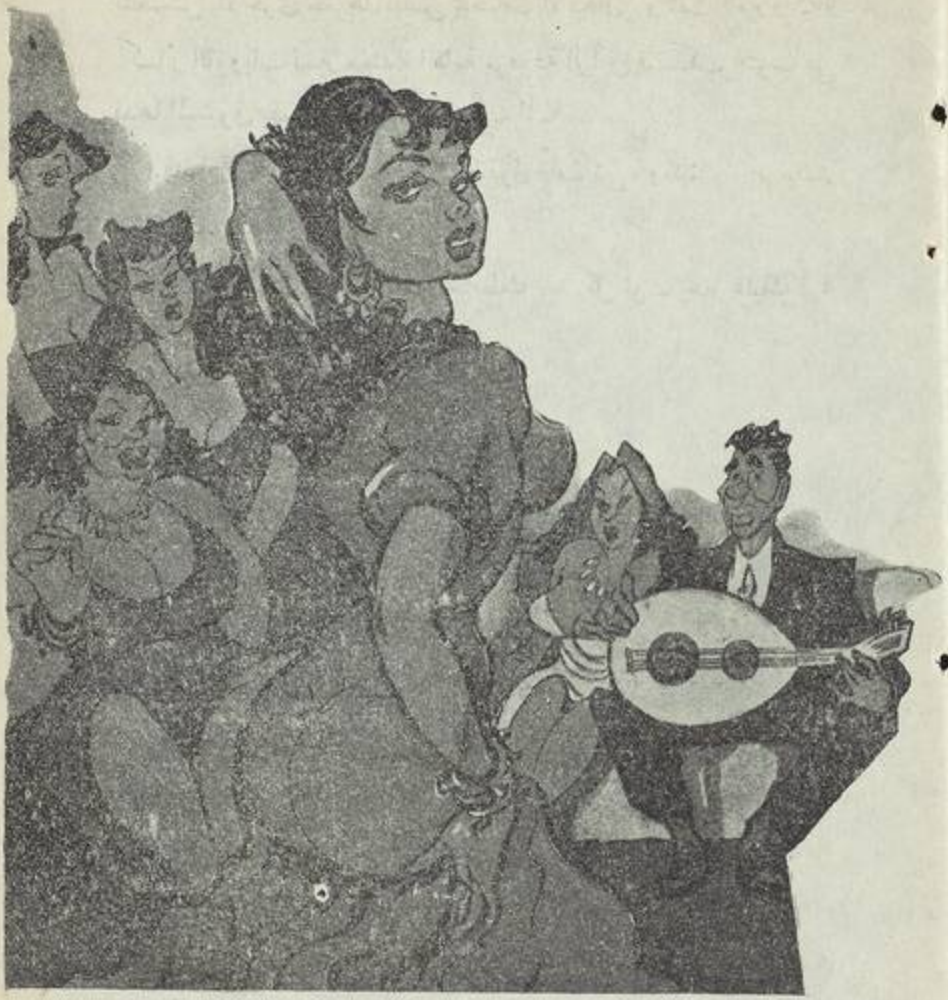

... تروح وتجيء ، وقد وضعت يداً على خاصرتها وراحت تتحسس بالأخرى شعرها ...

تتحسس بالأخرى شعرها اللصق بمختلف الأدهان . وكانت «مبروكة» كسائر القرويات تسير معتدلة القامة مرفوعة الرأس فينسكب الثوب على قدها المشوق ينساب متموّجاً انسياب الماء .

فتتبادل عمتها وزائراتها نظرات تقول ألف شيء وشيئا . ثم تبتسم « ست عيوشة » فى فخر وتجيبها :

- « اسم النبى حارسك وحافظك .. كل ثوب يحلو عليك ! »

وتقول إحدى الحاضرات :

- « ياصلاة النبى ! غزال والله ! »

فتعلق أخرى :

- « وشرف نينتى لو تمايلت لهوى الرجال قتلى على الصفين ! »

وتهمس ثالثة فى أذن زميلة :

« انظرى يا أختى إلى فخذيها وساقيها... عمودين من البلور ! كيف تحتفظ بهما هكذا ... المضروبة ؟ » .

فتتمصص الزميلة شفتيها وكفها على خدها ترمق « مبروكة » بكمد وتقول :

- « قشدة - خام لم تزل ! عينى علينا ! السهر هدّ عافيتنا ! »

فتندفع أخرى طفح بها الغل :

- « أين القشدة هذه ؟ والنبى لا أراها إلا طويلة . وهيفا ! »

وترشقها الباقيات بسهام قتالة من عيون تنضح غيرة ومقتاً ، والفتاة نفسها لاهية إلا عن حالها ؛ وإذ لا تجيبها إحداهن بجواب شاف تدير نحوهن كتفاً رشيقة وتمط شفتيها متغاضبة وتخرج .

وكان «صفوت» يتودد إليها بعينيه الضيقتين وشفتيه المبللتين أبداً؛ فتصيبها قشعريرة من أطراف شعرها تسرى إلى قفاها وكتفيها وتنزلق إلى كعبيها تهزها هزاً كمس الكهرباء. فتسرع فى حيرتها وخجلها إلى شالها تلقيه على رأسها تتلفع به. ومنذ فاجأته متشبثاً بإحدى فتيات أمه — ذات شعر طويل مصبوغ — وهو يجرها إلى حجرته وراحتاه المحمومتان على كتفيها كمخلبى حيوان قابض على فريسته، وهى تشعر بغثيان يصيبها كلما وقع بصرها عليه.

وذات صباح جاءتها عمتها تتمايل وتتثنى ووجهها منطلق:

— «مبروك يا حلوه! غداً كتب كتابك!»

فقفزت «مبروكة» من مكانها مذعورة تصيح:

«كتب كتابى؟..»

ثم غلبها الحياء فنكست رأسها ووجهها يلتهب؛ فأكبت عمتها عليها تحتضنها وتقرص ذراعها:

«وماذا فى ذلك؟ أليست أمنية كل بنت الزواج بابن الحلال؟»

فعضت الفتاة شفتها تتماسك وهى تسأل بصوت صغير:

— «لكنى... لكنى لم أعرف أن... أن هناك من خطبنى؟»

فرنت ضحكة «ست عيوشة» مجلجلة:

— «يا عفريته! أو تتبالهين؟ أو تظنينى قد أصابنى العمى لا أرى نظراتكما وغمزاتكما، ولا أفهم معنى همساتكما؟»

فانتفضت « مبروكة » يغشاها رعب قاتل تسأل :

— « من ... من تعنين يا عمتى ؟ »

فتأوّدت المرأة وهى تجيبها ويداها على ردفيها السمينين :

— « ابن عمتك .. ياروح عمتك ! »

لو أنهم ألقوا بها فى جب أسد ما صرخت ملتاعة من يأسها وذعرها كما فعلت وهى تهب هاربة لا تلوى على شىء تتلمس طريقها إلى الباب :

— « صفوت ؟ صفوت ؟ أنا ... أتزوج صفوت ؟ مستحيل ! مستحيل ! »

فانقضت « ست عيوشة » بجسدها الضخم تسد عليها الطريق وتقبض على كتفيها بشدة وقسوة ، وقد تبدل لطفها غلظة :

— « صفوت ؟ وماله صفوت ؟ أتتعالين علينا يا فلاّحة يا أم جلباب أزرق ؟ »

فلما ناضلتها « مبروكة » متململة تحاول الفكاك لطمتها لطمة صارمة بكفها السمينة ألقتها أرضاً تصرخ مستغيثة كأنما أصابها جنون :

« اتركونى .. اتركونى ! دعونى أسافر إلى قريتى ! دعونى أعد إلى قريتى ! الله يستركم ! »

— « الله يخسف بك الأرض يا خائنة ! أنأكلين من خبزنا وملحنا ثم تصيحين بوقاحة فى وجهنا لنتركك تعودين لتعيشى على هواك ؟ أندع ثروة أخى بين يدى جاهلة مثلك تتصرف فيها دون رقابتنا ؟ والنبى لن تفلتى من تحت أعيننا ! »

فيزداد صراخ « مبروكة » وتتوالى على رأسها اللطمات حتى انتفخ صدغاها وانتفش شعرها وهمدت ذراعاها إلى جانبيها ؛ فكوّرت نفسها فى ركن من الحجرة تدفن رأسها بين ركبتيها .

فصاحت عمتها وهى تستدير لتخرج :

— « ومن الليلة ستسمعين معنا وراء رزقك ! ليكن فى علمك .. عندنا شغل الليلة ... فرح سنقوم بإحيائه ؛ سترقصين مع « البنات » وتغنين .. وتفعلين غير ذلك كل ما تؤمرين به ! »

فاحتد نحيب الفلاّحة المسكينة وتمايلت مولولة :

— « تعال يا أبى انظر بنتك وما يجرى عليها ! »

فجاءها صوت عمتها من خارج الباب المغلق عليها بالمفتاح تجيبها ساخرة :

— « زمانه عضم نخره السوس ! داهية لا ترجعه ! »

فانبطحت « مبروكة » تسكب تعاستها دموعاً سخينة ، وطافت بها ذكرى أبيها وحنانه وحياتهما الهانئة معاً ؛ لقد ماتت أمها وهى تضعها ... هكذا قالوا لها ... فأبى الرجل الكريم على نفسه الزواج ، وتوّج طفلته ملكة على قلبه وكوخه وحانوته المتواضع . فكافأه الله نجاحاً وأثابه رواجاً . فوسعت تجارته وتدفق المال الحلال بين يديه حتى اشترى سبعة أفدنة وبنى كوخاً جديداً رحباً انتقل إليه مع ابنته وابن أخيه الذى تبنّاه منذ قتل عنه أبواه طفلاً فى حادث .

هنا طار خيال « مبروكة » إلى « قناوى » — ابن عمها الذى نشأ معها — « قناوى » ، بهدوئه ، ورزانته ، وتفانيه فى خدمتها ؛ فزاد بكاؤها وقلبها خافق متشوق ؛ لقد عارض فى سفرها مع عمتها وعلا صوته — أول مرة فى حياته — وهو ينهرها ويرميها بالنزق عندما رآها تنبذ بسهولة ودون فكر الحياة التى تعودتها وتشبثت بالرحيل إلى المدينة ؛ وقد جن جنونها حينئذ وأهانته وقررت أن لقنه درساً ؛ تباً لها ! تباً لها ! « قناوى » ... « قناوى » ! لقد شغف بها وسكب روحه بين راحتيها ، ووقف جهوده على إسعادها وتخفيف حزنها بعد موت أبيها ؛ كانت السعادة قاب قوسين منها فتعامت عنها وتصامت عن ندائها الهامس ، وانطلقت جامحة تنشدها بعيداً ... فى أفق آخر ... فى سماء غريبة ... نائية .. تباً لها ! غبية تستأهل ما حل بها ! « قناوى » .. « قناوى » ! أين عيونك يا « قناوى » ؟

لطمت « مبروكة » خديها وهى جاثمة على الأرض تتمايل مولولة ، وتندب حظها مفجوعة ... مفزعة من المجهول ... مما يراد بها . لقد فهمت الآن — والآن فقط لماذا قاطع أبوها أخته « عيوشه » فى حياته وتنصل من قربتها ... كانت « مبروكه » تسمع من نساء القرية أن لها عمة تعيش فى « طنطا » فإذا سألت عنها أباها تجهم وجهه واستعاذ بالله واستغفره وحوقل وبسمل وقال لها :

— « دعينا من سيرتها يا بنتى ! لقد ماتت عمتك فى نظرى ! » .

وكان أبوها على حق . فكأن « ست عيوشة » معلمة الأفراح

والليالى الملاح لاتمت بصلة إلى « الحاج رفاعى » الرجل الطيب الدين الكريم .

ومر النهار . وأيقظ « مبروكة » من أحلامها صوت المفتاح يدور فى قفله والباب يفتح . وجحظت عيناها وهى تحملق فى العتمة المخيمة ، وترى « صفوت » يدلف منفلتا نحوها يسبقه فحيحه . وتوقف لحظة يسعل بشدة بصق بعدها إلى جانب ، ثم ارتمى على « مبروكة » يحتضنها وذراعاه ثعبانان أملسان لسعتها برودتهما وهما تتسللان حول عنقها . فقاومته مستميتة ... تعض .. وتنهش عن اليمين وعن الشمال ، وصدى صرخاتها يرن فى الحجرة المغلقة ، فانقض يضغط رأسها على صدره الخرب يكتم أنفاسها . فتحشرجت الصرخات المجنونة فى حلقها وقواها تخور شيئاً ... فشيئاً تحت إصراره ...

ثم فجأة شعرت بنفسها حرة طليقة . فقامت تتخبط فى الظلمة مضطربة مهوشة ، وتساندت على مرفقيها لترى « صفوت » ملقى بعيداً عنها يناضل ويكافح ليتخلص من قبضة شبح تبيّنت « مبروكة » فيه الفتاة ذات الشعر الطويل المصبوغ ، وقد تبعته وانفلتت متسللة خلفه من الباب الذى سها عنه مفتوحا . وقد ألقت بنفسها عليه وأخذا يتدحرجان من أول الحجرة لآخرها و « صفوت » يسب ويلعن مهدداً . وعندما استغاث بأمه ضحكت الفتاة بسخرية وقالت بتهكم وهى تلهث :

— « لقد خرجت لتلم « البنات » .. استعداداً لفرح الليلة ! »

ثم أردفت وهى تنقض عليه مرة ثانية تكيل له الصفعات : « آه يا خائن ! ألم تعدنى أنا بالزواج ؟ ألم تعدنى أن تخلصنى من مر العمل مع أمك ؟ ألم يكفك ما فعلت بى حتى تحاول أن توقع بهذه القطة الغمضة ؟ » .

ورفعت رأسه بغل وأسقطته على الأرض تقول : « لا وحياة النبى ... لست سهلة كما تتخيل ! أنا وانت والزمان طويل ! »

وهوت بقبضتها على يافوخه فتكور بجسده الضامر مغشياً عليه ، على حين صاحت هى « بمبروكة » :

— « قومى يا أختى . قومى فرى ... انفذى بجلدك ! »

فلما انكفأت « مبروكة » على قدميها تقبلهما دفعتها الفتاة عنها بخشونة ناحية الباب :

— « ليس هذا وقته ! اذهبى ... اذهبى من هنا ، وإياك أن تعودى ! فرى ... اجرى . اجرى ! »

وقد كان . فرت « مبروكة » ... جرت وظلت تجرى وتجرى تتلفت خلفها بعيون جاحظة وأنفاس متقطعة ... مذعورة ، مفزعة . ولحقت بآخر قطار وقد تحرك من المحطة ؛ فقفزت إليه مستميتة وانكمشت فى ركن قصى تخفى رأسها بذراعيها ، وتكور نفسها فى أصغر مكان وسعها ، ولما استبطأت القطار بعد بلدتين تركته ونزلت ؛ وأخذت تجرى وتجرى عبر الحقول .. وتجرى وتجرى عبر القنوات ...

تقع وتقوم لتعاود الفرار ؛ وتبللت ثيابها ... وانتفش شعرها ... ودميت قدماها ... فما توقفت وما التقطت أنفاسها إلا أمام الكوخ الحبيب ؛ فهوت بقبضتها على بابه تقرعه ودموعها تغرق وجهها .

وألقت بنفسها على صدر « قناوى » لحظة فتح لها الباب ... ودفنت وجهها فى كتفه تمرغه وتعول ؛ وانغرست أظافرها فى لحم ظهره وهى تحتضنه و .....

واقرأ القصة من الأول ! ...

السَّرابُ

قالوا لى إنها مريضة بالنوم . . . نوم ؟ . . . كيف !

ابتسمتُ فى حزن مستسلم . . . هكذا أهل الزوج دائماً . . . مبالغون . . . مبالغون فى تصوير أى خطأ تقع فيه امرأة ولدهم .

ربما يا أهل الله . . . ربما هى عليلة . . . أو حامل . . . ولا بأس بالراحة المتصلة معظم ساعاتها . فلووا شفاههم عنى باشمئزار . . . كلا . . . إنه نوم . . . نوم . . . كسل . . . وخم . . . خبل . . .

قولوا يا ناس كلاماً غير هذا . . . لا والله . . . كلامنا هذا هو عين الحق . . . النهار طوله والليل عندها نوم فى نوم . . . نوم مسترسل . . . لا تصحو . . . لا تنتبه . . . لا تقوم بواجب . . أدنى واجب . . . لا نحو بيتها . . . ولا نحو أولادها . . . ولا نحو زوجها . . . لا . . . ولا نحو نفسها . قميص نومها ظل على بدنها أسبوعا كاملاً . . . وهى مرتمية على سريرها نصف ميتة . كنا فى بداية هذه المصيبة إذا سألناها عما دهاها ، تململت . . . التفتت ناحيتنا . . . وجفناها مسبلان . . . وغمغمت بثقل . . . كأنها سكرى . . . بضع كلمات متقطعة . . . ممضوغة . . . لا تبل ريقاً ولا تشبع من جوع ، ثم ساء الحال فصارت لا تجيبنا بلفظ . . تظل مستلقية على ظهرها فى استرخاء تام . . . مغمضة العينين . . . وقد تتقلب بعد لأى على جنبها الآخر وتغرق

فى . . . النوم . أما الآن . . . فلها يومان . . . يومان . . . لا تشعر بنا .. ولا ترد علينا ... بل لا تتحرك ... ولا تتقلب ... ولا تطرف بجفن ... نوم ... نوم ... نوم ... موت حى ...

فبلعت قلبى أرده ثانية مكانه . « نجوى » . . . « نجوى » . . . بنت الحيوية . . . بنت الضحك . . . « نجوى » المتحدية . . . براقة العين مرفوعة الرأس فى حزم . . . أمل . . . ثم « نجوى » . . . « نجوى » العاطفية . . . الحالة . . . « نجوى » التى تعبد كل شىء حولها . . . كل مخلوق . . . إنسان . . . حيوان . . . غصن . . . سحابة . . وردة . . عصفورة . . . وتقول الشعر فى «النيل» . . . شعراً ركيكا أعرج . . . لكنه شعر . . . نبضات قلب . . .

فزعت من أقوالهم . فنسيت أننى ضيفة . . . غريبة . . . أقف على عتبة بابهم . . . نعم صديقة « نجوى » عمرى . . . لكنى لست من دمهم . . . لا يليق أن أقحم أننى فى « شئونهم » . . . نسيت . . . عميت عن النظرات المتعالية حولى . . . عن الترفع الصامت البارد . . . ونحيت من كان منهم فى طريق أدفعه فى صدره ، ومرقت كالسهم إلى حجرة رفيقة صباى . . .

كانت كما وصفوها تماماً ... مستلقية على ظهرها وشعرها فى ثورة عارمة ... وشفتاها ... شفتاها أول مالفت نظرى ... شفتاها مضمومتان بعنف ... تحجرتا فى ... فى قبلة وهمية . . وذراعاها المسترخيتان إلى جانبيها ... مبسوطتان وسمعهما كأنما سيعانقها ... خيال . وكان

وجهها عجباً ... نعم مرمرى الشحوب ... لا حياة فيه ... ولكن لم يكن يكسوه ... أى ... أى ألم ... بالعكس ... سعادة كبيرة ... سرور دفين ... أو ... أو كما صور لى عقلى ... نشوة ... نشوة عميقة ... مخدرة .

وكانت الحجرة مغلقة ... مظلمة . فانحنيت لهفى على صديقتى أتفرس فيها ... ويداى أضغط بهما على صدرى فى جزع . وتعلقت عيناى دون وعى بشفاهها ... تلك الشفاه التى تتحرق فى الظلام .

وضعت كفى على ثديها الأيسر ... أتسمع . فجاءنى تجاوب قلبها واهناً ... متردداً . وخيل إلىّ أنه لولب ساعة نسى صاحبها أن يملأه فضعف ... ضعف ... يلفظ آخر نبضاته ... ثم يتوقف .

فهرعت ملتاعة من الحجرة وارتميت على آلة « التليفون » أستنجد بطبيب ... أى طبيب .

وجاء ... وشمر عن ساعديه ... وضرب النوافذ كلها يفتحها ... ووخزها ... « نجوى » ... بمختلف الإبر ... ورفع رأسها ودلق فى حلقها أقراصاً مذابة ... وعقاقير بالنقطة ... وأدوية باللاعق ... ثم قلبها على وجهها وأجرى لها تنفساً صناعياً عنيفاً ... ونزع عنها ثيابها كلها ولفها هو وممرضته بالمناشف المغموسة فى الماء الحار ... ثم الماء المثلج ... ثم لفاها بعشرات البطاطين ... ثم نزعاها عنها ...

ولهث الطبيب ... ولهثت الممرضة ... وثلجت أطرافى أنا . ومرت

ساعة ... ساعتان ... وثلاثتنا نحملق ... ننتظر على نار ... أى إشارة ... أى تجاوب ... أى نبضة ...

دون أدنى نتيجة . فمسح الطبيب عرقه ، وارتدى سترته ، وزرها ببطء وحزم ، ولملمت الممرضة الآلات والحقيبة وخرجا . وعند الباب ، وأنا أدس نقوده فى يده قال الطبيب :

— « صديقتك هى ؟ »

فأومأت ... مشدودة الأعصاب .

فأشار برأسه ناحيتها :

— « لا شىء بها ... أعنى هى سليمة ... فى أحسن حال ... جسمانياً .. أما ما عدا ذلك ... »

وقلب شفتيه ، ورفع حاجبيه فى حركة معبرة مصحوبة بهزة من كتفيه .

فأغلقت الباب خلفه وعدت أجرّ قدمى بذهول . وعلى الأرض ... جنب السرير ... ارتميت على ركبتى ... أدعم ذقنى براحتى أتأمل « نجوى » المسجاة أمامى كالتمثال ... على حالها ... الشفاه الخرساء التى تنادى ... والذراعان المتوسلتان ... والشعر النشوان ...

ورحت أقدح ذهنى ... أستعيد فى خيالى حياتها ... كنت على صلة وثيقة بها ... ماذا جد عليها ؟ لا شىء على ما أعرف ... زوج وسبعة أولاد ... زوج مقطب له كرش ... وأولاد صخابون ...

... « نجوى » المسجاة أمامى كالتمثال ... الشفاه الحرساء التى تنادى ... والذراعان المتوسلتان ... والشعر المنشوان ...

وأهل زوج تعيش بينهم ... فى وئام تام ... لم تختلف معهم يوما ... هم الآمرون الناهون فى بيتها وهى .. هى دائماً باسمة ... راضية بما يرضيهم ... إذا تزوجت بنت لهم فهى التى تجهزها ... تجوب المتاجر ... وتنا كف البائعين ... وتحاسب الحائكة ... وإذا مرض أحدهم فهى التى تقف مع الطبيب ... ثم تنفذ تعليماته ... وإذا خرج الطاهى سدّت مكانه ... وإذا مرضت الخادمة ...

ولكن « نجوى » تعودت هذه الحياة ... تسع سنوات زواج تسربت إلى دمائها فأضحت جزءاً منها . لابد أن هناك ... هناك شيئاً ... آخر ... مستخفياً ... زلزلها ...

عدت أقدح ذهنى .. هى تعيش فى نطاق ضيق ... لا نادى ... ولا سينما .. ولا حفل ... معارفها معدودون .. كلهم نساء ... المفاجآت معدومة ... والحوادث نادرة ... ثم لا جديد ... لم يمت عزيز لها ... فهى يتيمة .. تربت فى بيت جدتها التى ماتت منذ ثلاث سنوات .. لا يمكن أن تحزن عليها الآن أو ...

وفجأة تذكرت ... أخو زوجها ... يقيم عندهم منذ شهر واحد ... ضابط بحرى يجوب بحار الله لا يستقر فى مكان . ظل متغرباً اثنى عشر عاماً سمعوا خلالها أنه تزوج أسبانية وأنجب بنتين ... ثم فرت منه المرأة إلى أحضان مواطن لها ... فطلقها زوجها وأخذ بنتيه واستقال وقفل راجعاً إلى مصر . اسمه « سعيد » .. على ما أذكر ... ربما ... أيمكن ... ؟

لم أتردد . ملت على « نجوى » فى غيبوبتها ... وألصقت فمى بأذنها ... وهمست ... بالاسم ... وكررته ... مراراً ... مراراً ... وتكراراً .

فاختلجت الشفاه المتحجرة ... خلجة مرتجفة .. ثم سكنت . ثم لا شىء غير ذلك .

لكننى تشجعت ... تعلقت بالاسم فى استماتة ... هتفت به ... مضطربة ... متحمسة ... صحت به ... كأنما أتوسل .. أنادى ... صرخت :

— « سعيد ... سعيد .. سعيد ... »

.. ومن وراء صوتى أعصابى ... دمائى ... روحى !

— « سعيد ... سعيد ... سعيد ... »

فانتفضت الذراعان الهامدتان ... وارتفعتا ... شيئا ... فشيئا ... كأنهما حيتان تتماوجان على نغمات ناى هندى .

— « سعيد ... سعيد ... سعيد ... »

ارتجفت الجفون .

— « سعيد ... سعيد .. سعيد ... »

... حتى تقابلت الذراعان ... وانضمتا ... وتشابكت الأنامل ... والتحمت متلوية بعضها على بعض فى عصبية . . . ثم هوت كقبضة واحدة على الصدر المتهدج . . .

وهبت « نجوى » جالسة بعينين رجراجتين . . . تمايل كغصن رطب . . . وتهتف معى :

— « سعيد . . . سعيد . . . سعيد . . . »

ومرت ثوان خلتها دهوراً . حبست أنفاسى وأنا راكعة على ركبتى لم أزل . وقلبى . . . قلبى يكاد يفر من حلقى . دائماً قصص الحب تشجينى . . . وهأنذى أشهد إحداها . . . أروعها . . . أعنفها . . . بل أشترك بدور ثانوى صغير فيها .

— « سعيد . . . سعيد . . . سعيد . . . »

راحت « نجوى » تنوح . . . تناجى . . . وهى تتلوى كأنما تعانى آلاماً جسمانية مروعة . وجحظت عيناى وأنا أرقبها . . . وأرى بدنها يختلج بقسوة . . . وعضلاتها ترتعش كأنما يسرى فيها تيار كهربائى جبار . ثم راحت تميل إلى الخلف . . . وجفناها ينسدلان . . . تميل . . . وتميل . . . حتى كادت تستلقى ثانية على ظهرها ، لولا أنى ألقيت نفسى عليها أتشبث بها وأهزها بكل قواى لتستفيق . وجذبتها بعنف خارج السرير كأنما أنقذها فى آخر لحظة من فوق هوة سحيقة .

فارتمت على الأرض وجلست تترنح وتمرر كفها على جبهتها . ثم سلطت علىّ عينيها العميقتين وقد قفز فيهما نور الانتباه والفهم . فما تعرفت علىّ حتى أخفت وجهها براحتيها وراحت تنشج . . . تبكى بمرارة . . . تصرخ :

— « لم . . . لم أيقظتنى ؟ حرام . . . حرام ! لم . . . آه . . . لم ؟ »

وفجأة هدأت . جففت وجهها بملاءة السرير وأخذت يدى بين بين يديها تفركهما . . . تقرصهما . . . تنفس بتقطيعهما عن لوعتها . وقالت لى وعيناها غريقتان فى دموع لاتنسكب من حدقتين كفنجانين مترعين فى قاع كل منهما ماسة :

— « سراب .. سراب ... حياتى كلها . . . كلها . . . سراب ! كلما خانتنى جانب من نواحيها وهوى بى . . . ورحت أتخبط . . . أعالج الوصول إلى طوق نجاة يبرق متدلياً أمامى . . . فيه أملى . . . فيه كل . . . كل منائى . . . فأتلوّى . . . أعانى . . . لأتعلق به . . . تشبثت أناملى الملهوفة بفضاء . . . فراغ ... سراب ! »

وألقت بنفسها على عنق فأحطتها بذراعى أربت كتفيها وأمسح شعرها وأنا أهمس :

— « صه . . . صه ! »

فلما استجابت بعد نضال . . . مرير . . . وسكنت مستلقية على ركبتى ، ملت عليها حانية :

— « قولى لى . . . حدثينى عنه . . . « سعيد » ! »

فانتفض بدنها الحيوانى . . . ولزج بعرق راح ينز به . . . يسيل . . . بطيئاً . . . وشعرت بجسدها حاراً بين يدى كأنما هو مدثر بصوف لا بغلالة فضفاضة فى شفافية الخيال . وأخذت تروّح بكفها ... وهى تلهث . . . مدغدغة الحواس . . . متوهجاً وجهها . . . مبهورة أنفاسها .

أغضيت . أشفقت أن تتعرّى ... تنزع نفس بائسة سترها عنها تحت بصرى ... وسمعى ... هكذا .

— « صه ... صه ! »

عدت أقول لها ... محرجة ... أدارى حيرتى ... خجلى كأننى دخيلة اقتحمت على واحدة الحمّام .

فلما سمعتها تغمغم بكلمات ممضوغة ، وضعت أناملى على شفتيها بخفة وأنا أقول مرة ثانية :

— « صه ... صه ! لا تتعبى نفسك . أنا فاهمة ... فاهمة ... فاهمة ! » .

فهبت كالنمرة وعيناها شعلتان تدفعنى فى صدرى وتضحك ساخرة ملء شدقيها .

— « فاهمة ... أنت ؟ ماذا تفهمين .. يامسكينة ... يا بلهاء » !

وارتمت على الأرض ... استلقت على جنبها ... تتلوّى ببطء ... بتلذذ ... تزحف نحوى ... كالحية النشوانة بفتوتها ... تتماوج بجسدها . وهدأ صوتها ... وبح . كأنما هو أوتار كمان تعزف عليها أحاسيسها الجياشة ، وجاءنى فحيحها :

— « ماذا تفهمين ؟ عن الرجل ... عن المرأة ... عن ... »

.. وبح صوتها وبح ... حتى بات همساً متأججاً :

— « ... عن الرغبة ؟ » .

وهوت على وجهها تفركه بين راحتيها ... تسحقه ... وعيناها مسبلتان .. وبدنها يتقاص ... تستنجد :

— « السعير ... السعير ! » .

فانكمشتُ أرتجف ... ألمم نفسى ... كأنما أنا حقاً قرب عاصفة هبت من الجحيم ... ناحيتى !

لم أمد لها يداً ... خفت أن تكويني نيران مشاعرها ... إلى هذا المدى كان منظرها مرعباً .

وراحت هى تقول وخدها الملتهب يستبرد على الأرض :

— « نشأت يتيمة ... لم أر أبوى ... وكفلتنى جدّتى ... عشت فى بيتها الواسع الكئيب مع زمرة من يتامى غيرى .. فقد كتب على العجوز الفانية أن تعيش لتدفن بناتها واحدة وراء الثانية وتجمع أولادهن فى بيتها تربيهم . وكبرنا .. ست بنات وولدان ... فى جو كجو الحظيرة .. أغنام ... يعلفوننا ويسقوننا ... ويدّرونا من برد ... ويظللونا من حر ... لا شىء ينقصنا أبداً .. فجدتى مقتدرة ذات مال .. لا ... لم ينقصنا شىء ... كثير ... حنان فقط ... حنان .. دفء ... حب ! » .

وبكى صوتها ... وغشينا صمت .. مر .. لم أجرؤ على قطعه .

— « ثم ... أحب الولدان بنتين منا . وبادلتهما البنتان الحب ... القبلات .. فى لهفة ... فورة .. صدق . فكنت أنا أرقبهم خلسة ...

خافقة القلب . . . هانئة . . . كأنما هذه الشفاه تداعبنى أنا وزوجتهم جدتى . . . العشاق الأربعة . . . فى حفل . . . هو النور الوحيد فى طفولتى . . . كنت أذكره فأنتشى ... أذكره . . . فيملأنى أملاً .

وعشت بعد ذلك أنا وبنات خالتى الثلاث الباقيات وحدنا مع جدتى . . . نرتعش كأن ذلك عن برد ونتلفت حولنا فى دهشة . . . البيت ساكن بعد صخب . . . غمام بعد شمس . . . جليد بعد نار . ولكن كان هناك . . . أمل . . . فى قلب كل منا . . . أمل تحنو عليه . . . تهدهده . . . ترضعه همساتها . . . تنفث فيه حار أنفاسها ... الدنيا واسعة . . . فيها رجال . . . لا . . . لا . . . شبان ذوو جمال ... أقوياء . . . تماثيل تماما . . ربما . . . ربما . . . يا رب . . . كان من بينهم شاب يرانى . . . وأراه . . . يهوانى . . . وأهواه . . . أنظر إليه فأردديه بنظرة . . . كما يقولون . . . وينظر إلىّ فأخر على ركبتى أسيرته ... جاريته . ويخطبنى ... ويضغط يدى ... بمغزى ... وهو يلبسنى « الشبكة » ... كأنما يذكرنى أننى صرت له ... له . الله ... ملكه يعنى ... عجبتُ .. كنا نحلم أن نفر من أسر إلى ... أسر . الحرية تعذبنا .. تكوينا ... الحرية تعنى الوحشة ... الوحدة ... الصقيع ! لا . . . لا . . يا رب ... يارب الأسر . . . الاستعباد !

وتزوجت بنات خالتى واحدة وراء الثانية . . جاءت «ست نظيرة» الخاطبة وخطبتهن لشبان هم الأمل الحلو ... هم الحلم الوردى ... هم السعادة . . النشوة .

وبقيت وحدى .. وحدى فى البيت الواسع . البارد .. الكئيب .
وكانت جدتى قد تقدمت فى السن حتى أضحت كومة من عظام تتقصف لأدنى حركة . وضاق خلقها ... وضاقت بى ... تنظر إلىّ بعجب ... بحقد .. لم لا يجىء أحد يخطب هذه البنت ... يخلّصنى منها ؟ تعبت يا ناس ... كبرت ... لم تعد بى قوة للعناية بمخلوق ... ولا رعايته وحمل همه ... بنت بختها قرف من أوله .. حتى « ست نظيرة » ... « ست نظيرة » الخاطبة التى بفضل همتها تزوجت كل البنات . . « ست نظيرة » هذه تزوجت ... سادت لنفسها زوجاً وهاجرت معه من القاهرة ... سافرت إلى « المنصورة » .. يارب تخلصنى منها .. البنت المضروبة ... إن شا الله بداهية !

وجاءت الداهية ... كهل أصلع قصير ... له كرش ونظارة سميكة ... محور حيانه « الطاولة » ورمية القهوة ... وأخذتنى تلك الداهية ومشت. وتنهدت جدتى بارتياح .. وماتت .

وعشت ... عشت سنين طويلة ... وأنجبت . وأكلت وشربت... ولبست ... ورحت . . وجئت ... وتنفست ... وبكيت ... وضحكت ... بلا روح ... بلا قلب ... بلا أحاسيس ! » .

مال رأس « نجوى » . . . مال على صدرها . . . وردة ذابلة . . . ميتة . . . كأنما تصور لى دون قصد ما حل بها .

ووخزت ثديها الأيسر ... فوق قلبها .. بأصبع مرهفة تقول :

— « فراغ هنا ... فراغ ... سراب ! »

وبلعت ريقها بألم كأنما يؤذيها حلقها واستطردت :

— « كنت أظنني أروى وجداني بالزواج ... أطفىء لهف قلبي بحبيب ! »

وقلبت كفيها نحو السماء ... رفعتهما ... في حركة بليغة ... ثم أسقطتهما على ركبتيها بيأس .

وصرخت ... ومرة ثانية بدنها ... بدنها الحيواني هذا يعذبها :

— « ثم جاء ... جاء ... هبط علىّ فجأة كأنه رحمة السماء ... استجابت لدعائي الأخرس ... جاء « سعيد » ... « سعيد » ... « سعيد » ! » .

وضمت ذراعيها بعنف على صدرها كأنه بينهما ...

— « سعيد » جاء ... جاء ليعيش معنا ... أنا وزوجي ... تحت سقف واحد ... يجلس جنب أخيه ... ويتكلم معه ... يأكلان ... ويشربان ... ويضحكان ... ويقفان جنباً إلى جنب ... لأقارن أنا ... وأكتوي ... أحترق . ويوما بعد يوم ... لمحت في أعماق عينيه ... حناناً ... حناناً ... عطشانة كنت ... أنا ... له ... حناناً شغل بالي ... أطاش صوابي . وصار وهو يتباطأ ... يتلكأ في حجرة الطعام ... يدخن غليونه ويتأملني وأنا ألم الصحون والملاعق .

وعاد ذات مساء مبكراً ليجدني في قميص قديم مبتل ... بلا أكمام ... مشغولة أحمّي ابنتيه ... ووجهي محتقن وشعري متهدج بلا نظام . فوقف مرتكناً إلى الحائط ... يعض غليونه ... ويرمقني

بنظرة غريبة ... طويلة ... وأنا أحمل بنتاً على ذراعى فى حين تعلقت الأخرى على ظهرى . ودخلت إلى حجرتهما ... حجرته ... ووضعتهما فى سريرها ... ودثرتهما جيداً . . . ثم خرجت أسحب الباب بخفة ورائى .

وفى الدهليز الضيق ... والعتمة لا يبدّدها إلا مصباح سهّار ضعيف ... وجدته ... ينتظرنى .

وقف يسد علىّ الطريق ... لا بقحة ... ولا بغدر ... ولكن ... ولكن بعطف ... بفهم ... شفقة ... دعوة خرساء حانية .

صعقت . . . تسمرت مكانى ... ألمم قميصى المبتل على بدنى ... وألقى برأسى إلى الخلف أزيح شعرى عن وجهى الذى شعرت بالدماء تنبض فيه بقسوة ... كأنها لطمات يرسلها عقلى لأستفيق ... لأقاوم . أقاوم ؟ من ؟ منای .. أملى ... حبيبى ؟

شعرت بالبركان يزأر فى أعماق ... تتجمع حممه ... تتجمع ... وتغلى ... وتفور . دارت بى الدنيا ... وترنحت ... وأنا أغرز أظافرى فى كفى كأنها أوتاد أشد بها نفسى حتى لا ألقى بها فى أحضانه ...

خطا خطوة واسعة ... سريعة ... نحوى وأمسك بذراعى العاريتين يضغطهما ليسندنى ... وللحظة خاطفة ... التقت عينای بعينيه ... فى تساؤل ... تحنان ... تفاهم ... فأغمضت عينى وأنا أشعر باسترخاء ... مخدر ... يتسلل إلى دمائى .. يشل أطرافى ... يهمد بدنى .. ومسح هو على ذراعى بعطف ، وسمعته يهمس بطريقته الأوربية المهذبة :

— « ذراعاك بضتان . . . مستديرتان . . . جميلتان ! »

فلما حاولت أن أشكره على تحيته . . . مجاملته ... لم يطاوعنى لسانى .. لم أستطع تحريكه . ماذا دهانى ؟ سألت نفسى بفضول ... كأنما أستفهم عن واحدة غريبة .

وجاءنى صوته من وراء جفونى المطبقة يقول لى :

— « أنت تعبانة ... تعبانة ... اسمحى لى ... اسمحى لى أن أسندك إلى حجرتك ! »

وعلى عتبة الباب ... تركنى . فدخلت وحدى ... دخلت ... لا أدرى كيف ... لست أذكر ... دخلت أترنح ... وارتميت على سريرى ... أغوص بين الأغطية وذراعاى مسترخيتان إلى جانبى ... ورحت فى غيبوبة ... غيبوبة ... سحيقة ... رائعة ... حلم ... جميل ... بديع ... رأيتنى فيه بين ذراعيه ... وشفتاه على شفتى ... و ... و ...

وخفت صوت صديقتى ... خفت ... همد . لقد نامت نامت عادت إلى غيبوبتها الهانئة . النشوانة .

فقمت على أطراف أصابعى ... وتسللتُ خارجة .

أبشرها السعادة!

يتفنن الخالق فى نحت عباده .. من الطين .. معظمهم من الطين .. وأحيانا من المرمر .. أو الأبنوس .. حتى الحجر .. والصخر .. والنار .. لم لم يدع سبحانه مادة إلا أذابها بين يديه روحاً بشرية . وهو لا يضيع وقتاً طويلا .. على ما أعتقد .. فى تسوية أجساد الرجال . أما إذا أمسك بقطعة طين .. أو عاج .. أو بشعلة .. ليصوغ منها أنثى .. فهنا الفن .. هنا الإبداع .. هنا الإعجاز .. ودائما تجد فى كل واحدة لمسة خالقها .. بصمة إبهامه .. خاتمه عليها .. قد يكون واضحاً .. صارخاً يبهر .. أو مستخفياً .. يبين بعد طول بحث وتنقيب .. فى بريق عين .. فى حلو شمائل .. فى صفاء روح .. لكنه دائماً هناك .. خاتم خالقها .

وهو أكثر ما يكون رحمة بالأنثى .. أطلقها هشة .. ضعيفة .. لاحول لها ولا قوة .. فى دنيا الوحوش .. دنيا الجبابرة . لكنه دس بين يديها سلاحاً حاداً .. لا يخيب .. جمالها .. أنثويتها .. وشحذ سلاحها هذا بغرائزها .. وجعل له غمداً من دهائها .

إلا هى .. المسكينة .. صاحبتنا .. بطلة هذه القصة . نسيها خالقها . أطلقها تجربة « عينة » أنثى بلا جمال .. بلا غرائز .. بلا

أنوثة . لم يكن فى قسماتها أى قبح .. ولم يكن فى قسماتها أى جمال .. صورة طبق الأصل طبعت منها مئات . . فجاءت نسخة باهتة . . مهزوزة . . يتعب المرء فى تأملها ويمل من البحث عن معالمها . فيتركها بهزة من كتفيه عينان . . يحتار المرء . . أهما حلوتان . . أم عاديتان . . كل ما فيهما نظافة وصحة ؟ وأنف مستقيم . . أم هو كبير شيئاً ؟ وشفتان . . أتنبضان بحياة . . حساسية . . أم هما قطعتا لحم ناتئتان . . فتحتا جرح ؟ وهى لا طويلة ولا قصيرة . لا سمينة ولا نحيفة لاغبية ولا ذكية .. لا شىء . . أبداً . . وسط . . تائهة فى الوسط . الدوامة التى يلف معها القطيع ويدور .. يتوه فى الزحمة .

ودائماً أنا أتخيل صانع تلك التماثيل الآدمية ممسكا بإناء به ماء نار يلمس قسماتها بنصفه . . لمسات الفنان الأخيرة لتحفته . . ثم يسكب ما تبقى فى جوفها . . فتنتفض تنبض بالحياة . . متوهجة . . من الخارج والداخل .

إلا هى . . لحكمة لا يعلمها إلا خالقها . . دلق دلو ماء النار كله .. مترعاً . فى جوفها وترك قسماتها باردة .. جامدة .. لا تهز أحداً .. أما روحها . . روحها فقد غاصت فى ماء النار تكتوى . . فتنشوى . وأما قلبها . . قلبها فقد تصاعد دخانه زفرات حارة إلى السماء . فرحمتها هذه . . ذات يوم . . وأرسلت لها زوجاً : أرملا . . مدمن قمار . . لكنه شاب .. وجميل .. وثرى . رضيت به .. بل طارت من الفرح .

وفى ليلة زفافها حطمها . . لطمها لطمة قضت عليها . . .

دخل حجرتها ووقف على بعد وذراعاه معقودتان على صدره . . يتأملها ملياً . . وقد ألبسوها قميصاً أبيض وتركوها تجلس على حافة الفراش . ثم مشى إليها ودفع بإصبعه تحت ذقنها ورفع وجهها نحوه . وكانت أهدابها المسدلة ترفرف . . مختلجة . ترتعد . . كفراشات وقعت فى فخ . وغاص قلبها وهى تسمعه يقهقه عالياً ويقول لها كلمات ثلاثا . . كل منها سهم انغرز فى أعصابها :

— « أنت . . عروسى . . أنا ؟ » .

وسحب إصبعه من تحت ذقنها فجأة . فانكفأ رأسها على صدرها كأنما لا يسنده إلا إصبعه ذلك .

وسار إلى مائدة زينتها واتكأ عليها ينظر فى المرآة . . يتحسس شعره اللامع . . وخدّه الناعم . . ثم استدار إلى « فتنة » ويد فى جيب « بيجامته » والأخرى يلوّح بها :

— « من أول لحظة يجب أن تفهمى أنى لم أتزوجك لجمالك . . فأنت شحاذة بالنسبة لتلك الهبة الكبرى . . كما لم أتزوجك لأصلك . فأسرتى عريقة . . . معروفة . . . مشهورة نار على علم ! »

وتنحنح ينتفش كالديك فى « بيجامته » الحريرية المزركشة :

— « فلم يبق إلا المال . . ومن البديهى أنى لم أتزوجك لذلك أيضاً .. » وضحك ساخراً « . ففى استطاعتى أن أبيعك وأشتريك .

. . وأشترى عشرا مثلك . . بكل سهولة ! المال عندى رمل . . تحت قدمىّ . . ألعب به لعباً ! » .

ثم سار إليها فى خطوتين واسعتين ووقف أمامها ويداه على خاصرتيه وساقاه متباعدتان فى تحد واعتداد . وقف ساكناً . . فنان يتلذذ برؤية تمثاله تصهره النار وتصوغ منه ما تخيّله . . مايريده .

— « أولادى . . أنا . . أطفالى هم سبب زواجى بك ، كنت مدرستهم الخاصة . . تعطفين على أحبائى المساكين . . وتشبعين جوعهم للحب والحنان . . فتعلقوا بك . وجرّبتك هذا الصيف عند ما دعوتك لتمضيته معنا فى الاسكندرية . فقد رأيت من نظافتك ونظامك وإخلاصك للأطفال ما أخافنى أن تتركيهم . . يوماً . . بسبب زواج . . مثلا . . أو انتقال إلى بلدة أخرى . . بطبيعة عملك كمعلمة ؟ المدارس الحكومية . فما طلبت منك أن تستقيلى لتتفرغى لأولادى حتى نفذت أمرى بإخلاص الكلاب هذا الذى يميزك ! »

وهز كتفيه دون اكتراث :

— « هذا كل ما فى الأمر ! فإذا كنت قد تخيّلت دافعا آخر . . مَيْلاً مثلاً . . أو غيره . . فى الموضوع . . فهذا ليس من شأنى ! »

ثم استطرد : « لك أن تحبينى . . أنا أسمح لك بذلك . . لا مانع عندى طبعاً . . فأنت امرأتى . . لكنك . . »

ولونت نبرته الجافة سخرية مرّة :

« لكنك . . طبعاً . . لا تنتظرين منى أن أحبك . . أو أدّعى أننى أحبك . . هيه ؟ »

فلم تجب . . ولم تتحرك .

واستطرد هو :

— « سيعاملك الخدم كرئيستهم . . . أعنى . . . سيدتهم . . . تشرفين على كل كبيرة وصغيرة من أمور البيت . . . ولا تنسى الأطفال . . . ترعينهم قبل كل شىء . وأمّا من جهتى أنا . . . فسأكافئك مرة كل شهر . . . كأنما أمنحك مرتّبا . فأنا رجل كريم . . . أعطى كل من يخدمنى حقه . . . فلن أحرمك من حقك الطبيعى ! » .

ثم أضاف بصوت لا حسّ فيه . . . لا نبضة . لا خلجة . . . لا أثر لعاطفة فيه . . . وهو يشير إلى الفراش :

— « ادخلى ! » .

ومد يده . . . وأطفأ النور .

* * *

واعتبرها الخدم رئيستهم . . . يأتون إليها بكلّ ما يختلفون على أدائه فيما بينهم . فتظل النهار طوله تفض ذلك النزاع . . . لتسوّى تلك المشكلة . . . ثم تحاسب الطاهى . . . وتسترضى السائق تتحمّل

عجرفته . . . وتعد الغسيل للغسّالة . . . تدور . . . وتدور مع اليوم . . . حتى إذا هبط الظلام أحسّت برعشة فرح لقدمه كأنه ذراعا عملاق تختبىء بينهما من أبصار النهار اللحوح الذى يرهقها . . . وترهف أذنيها تتسمّع مترقّبة . . مضطربة . . لا تدرى بالضبط ماذا تنتظر .. ماذا تتسمّع .. وليس هناك سوى خفقات قلبها المتلهّف وخميج غرائزها المتيقظة .

كانت تحبه .. الظلام .. يغلف الدنيا حولها بغـــلالة شاعرية .. غامضة .. تلهب خيالها وتنعش آمالها .. كأنما هى مراهقة تحلم بعد بالمجهول .. المجهول الذى قد يلوّن حياتها ... يوماً .

ويتعشّى زوجها وضيوفه .. دائماً عنده ضيوف فى حجرة مكتبته . . رجال ونساء . . فى حين تقف هى مع الطاهى فى المطبخ تشرف على غَرْف الطعام .. ويتعشّى الأولاد وينامون . . وتتعشى بعدهم وحدها . . دائما وحدها . . مقطّبة . . مرهقة . . لاتكاد اللقمة تنزلق إلى حلقها .

وينسحب الخدم إلى المطبخ ، وتجرّر « فتنة » قـدميها إلى حجرتها . وما تغلق خلفها الباب حتى تنزع عنها ثيابها . . قطعة . . قطعة . . كأنما تشكها وتمزّع باقتها كأنما تخنقها . . وتمزّع معها

شخصيتها المتزمتة . التى ينظر إليها أهل البيت كآلة صمّاء دقيقة الصنع لا تتوقّف .. ولا تكلّ . . لاتملّ . . ولا تحس .

ثم تدخل الحمام . . ولو كان المطر فى الخارج سيولاً . . تدخل . . وتطلق الماء فاترا . . يتناثر متدفقاً على رأسها وترفع هى وجهها . . وذراعيها . . وكفّيها . . إلى أعلى . . إليه . . تتلقّاه رطباً . . حنوناً .. ينزلق إلى إبطيها . . وصدرها . . وبطنها . . كوثنيّة تتعبّد لاله يباركها . ينتعش بدنها . . ويختلج . . حياً . . وتصرخ عضلاتها بقوى مكبوتة . فتلتف « فتنه » بمنشفة كبيرة . . تتلفّع بها . . وتخرج لاهثة . . ترتمى على فراشها . ويسرى فيها دفء . . خدر . . فتغمض عينيها وهى تبتسم للظلام وتتنهد من أعماقها . وتلقى بذراعيها إلى جانبيها . . فتنفرج المنشفة عن صدر نافر . . يتواثب . . متلهفاً وتتمطّى هى .. بتلذّذ .. نشوانة .. كأنما هناك أكف خفيّة تدلكها . ثم تتقلّب على وجهها . . تمرّغه على المخدّة . . تمسحه بها . . تدفنه فيها . . كأنها صدر حبيب .

ويعلو نداء . . ويتجاوب صدى عواء . . داخلها . . يهزّها . . يزلزلها . . فتتقلّص عضلاتها . . وهى تقاسى . . تكابد ، فتنقض على بدنها .. فخذيها .. وذراعيها .. ونهديها لكما .. وخمشاً .. وتقطيعاً .. كأنما تقاتل وحوشاً تتناهشها وتهوى على الأرض تبكى بحرقة . . تتلوّى ضارعة :

— « ربّى . . ربِّى . . هذه النار أخمدها . هذه القوى أضعفها . أخرس هذا النداء . . لا أقوى على كل هذا . لا أقوى . . لا أقوى ! أنعم علىّ ببلادة الحس . . بموت المشاعر . بخمول . . بذهول . ببرود ! أمّا هذه الحيوية . . هذه الفورة . . فلا لا . . لا أريدها . لا أريدها . لأن . . لأن أحداً لا يريدها ! » .

فذبلت . . انصهر عودها . . ذابت . . كأنما هى شمعة تحترق بنارها .

فتنبّه لها « يسرى » . . زوجها . . يوماً لقيها مصادفة فى أحد دهاليز القصر . وكان مسرعاً فى حلّة صيد أنيقة وقد علّق « بندقيته » على كتفه ليلحق بعصبة نساء فى ملابس صيد « رجالى » . ورجال فى قمصان مزركشة « حريمى » . . اجتمعوا فى حجرة مكتبته .

فلما لمحها « يسرى » تستند إلى الحائط يتساقط من ذقنها شحوب ، قطّب حاجبيه وتوقّف يرمقها ثم أسرع نحوها ووقف يتأملها ويداه فى جيبيه . ثم صاح فيها بغضب :

— « ما هذا ؟ مالى أراك ضعيفة . . . تتساندين ؟ هذه علامات لا تطمئن ! » .

فرفعت إليه عينين ذليلتين وغمغمت :

— « لا تخف . . ليس هناك شىء مما تخشاه » .

كان قد أفهمها صراحة أنه لا يرغب فى أطفال .. منها . لا .. لا .. أطفاله الأربعة يكفون .. وهم أولاد أصل .. من الجهتين .. أمهم الله يرحمها كانت بنت « سليمان باشا » .. ابن « ناجى باشا » .. ابن .. وغير ذلك .. جمالها كان عجباً .. رائقاً .. شفافاً .. ينظر المرء إلى وجهها فكأنه يطل على بحيرة .. صفاء .. وروعة .. وبهاء . فجاء أولادها .. كما ترى .. أولاد مماليك !

وهى .. « فتنة » كانت تحبهم حقاً .. أطفاله .. تشعر بقلبها يقفز وواحد منهم فى أحضانها تدلله وتضم جسمه الصغير تضغط به يديها المحرومين .. آه لو كان أحدهم ابنها تلقمه ثدياً .. تغذيه بدمائها .. وتشعر بشفتيه الرقيقتين تستجديان منها .. الحياة .

فتفتتت أعصابها .. سحقها الحديد الذى قيدتها به . فنصحها الأطباء بالنزهة .. كثرة الخروج .. تبديل المناظر .. رؤية الناس .

وفى أحد معارض الرسم ، ذهبت تنشد السلوى بين الصور الخرساء . وكانت صالة العرض مزدحمة . فانتبذت ركناً إلى جانب انزوت فيه .. تركت الناس يدفعونها إليه دفعاً بأكتافهم ويزاحمونها .. يزيحونها عن طريقهم .. وفى قرارة نفسها رضاء خبيث بالمهانة .. والتحقير .. والإذلال .. تلقاهم من الدنيا كما تلقاهم فى بيتها . كانت تريد أن تقنع نفسها ... تفحمها بالواقع .. إنها خلقت كذلك .. دخيلة .. منبوذة .. غير مرغوبة .. أينما حلت .. لا نصيب لها .. لا حق لها

كما للناس فى الحب .. فى السعادة .. فى الأمل .. لا .. ولا حتى فى النار .

وراحت من ركنها منكمشة تتأمل زوّار المعرض .. رجالا ونساء .. يتبادلون الحديث .. والآراء .. و .. والنظرات .. نظرات ترطب القلب .. لا نظرات تائهة .. ضائعة بين نساء ونساء .. أو رجال ورجال .. ولكن بين الضدّين .. بين الصنفين .. وفى زاوية كل عين سر .. وفى خلجة كل شفة دعوة .

فانكفأت تعض شفتيها هى .. العذراوين .. شفتيها اللتين لم يعرّفها زوجها بأسرار نفعهما .. قط .. وهو يؤدى لها حقها .. مرتبها .. أول كل شهر .

فاستدارت نحو الحائط تخفى دموعها عن الناس . فقد خرجت دمعتان .. وتحجّرت البقية فى حدقتيها وهى تحملق فى لوحة معلقة على الجدار فوق رأسها . أخذت تحدق فيها .. وتجهد عينيها من وراء دموعها كأنما تنظر تحت ماء . وانقضت بشره .. عطش .. تنهل من قسمات ذلك الوجه .. وجه رجل هذا .. حقا .. يعيش فى دنيانا ؟ هذا الصفاء .. الضياء .. هذا الفهم .. هذا .. هذا الحنان ؟ ليست عذوبة تلك التى تكسو الوجه .. ولا رقة .. ولا ملائكية .. بالعكس . . قسمات بشر . . رجل . . ولكن . . ما أروع الخشونة مغلفة بلين لها . . للأنثى . . وما أبهر القوة مستضعفة . . حانية .

كادت « فتنة » تلقى بنفسها على ذلك الصدر العريض . . الرحيم . .

تخفق فيه لوعتها . . وحدتها . . تريح رأسها الحائر على تلك المخدة المتهدجة . وبالفعل بسطت يداً صغيرة . . ترتعش . . تتحسسه .

فزعق حارس خلفها :

— « ممنوع اللمس . . يا هانم ! »

فقفزت تتلفت حولها . . تزم ما بين حاجبيها . . كأنما أيقظتها غلظته من حلم جميل . فلما سار عنها بعيداً . . تقدمت مرة ثانية إلى اللوحة ورفعت عينيها فى استسلام متعبد إلى ذلك الوجه . وامتلأت عيناها بدموع راحت تشرق بها وهى تفور فى حلقها . . متزاحمة . . تخنقها . . كأنما تنبع من أعماقها ، أين . . أين نجده . . ذلك الحنان الذى يطل من عينين عميقتين تغوص فيهما الروح . . تغتسل من أحزانها . . وتنتعش . . تنتشى ؟ حرام والله تلك اللوحات . . تطلق الخيال . . وتلهب الأمل .

ومالت « فتنة » تحاول قراءة اسم الرسام . . تستخلصه بصعوبة من بين الألوان والظلال . .

فغمغمت بصوت عال :

— « منـ . . منـد . . »

— « مندور ! »

فدارت على عقبيها بسرعة لتراه . . بلحمه ودمه . . واقفاً خلفها . . صاحب الوجه ذو العينين العميقتين . . يبتسم لها ابتسامته تلك التى تأخذ طريقها رأساً إلى القلب .

فازدردت ريقها الذى جف . . بجهد . . وصعوبة . . تفتح عينيها . . وتغمضهما . . ثم تمسح جبهتها بظهر يدها وتتلفت حولها . . كأن المعرض قد خلا من روّاده . . وأطفئت معظم أنواره . . ولم يتبق إلا تمثال الغجرية تلك التى تحمل ودعة مضيئة .

فترنحت « فتنة » وقد ظنت بنفسها دوارا هيأ لها صورتين توأمتين واحدة عن يمينها وواحدة عن شمالها .

أما هو . . الرسام . . فقد أمسك بمرفقها . . وهمس فى رفق :

— « مالك . . يا هانم ؟ »

— « لا شىء . . لا شىء ! »

ثم استدركت تسأله وعيناها تتغذيان بوجهه :

— « كيف . . كيف استطعت بريشتك ألا تفلت هذا . . هذا الحنان . . هذا الفهم . . أعنى ذلك التعبير المعجز ؟ »

فأرخى بصره يبتسم :

— « صورت نفسى فى المرآة ! »

ورفع كتفيه . . ثم أسقطهما . . ليعبر عن سهولة ذلك الأمر . . فى حركة صبيانية حبيبة . . وأضاف :

— « وأسميت لوحتى « منـدور » . . فأنا حقاً قد نذرت نفسى للفن ! »

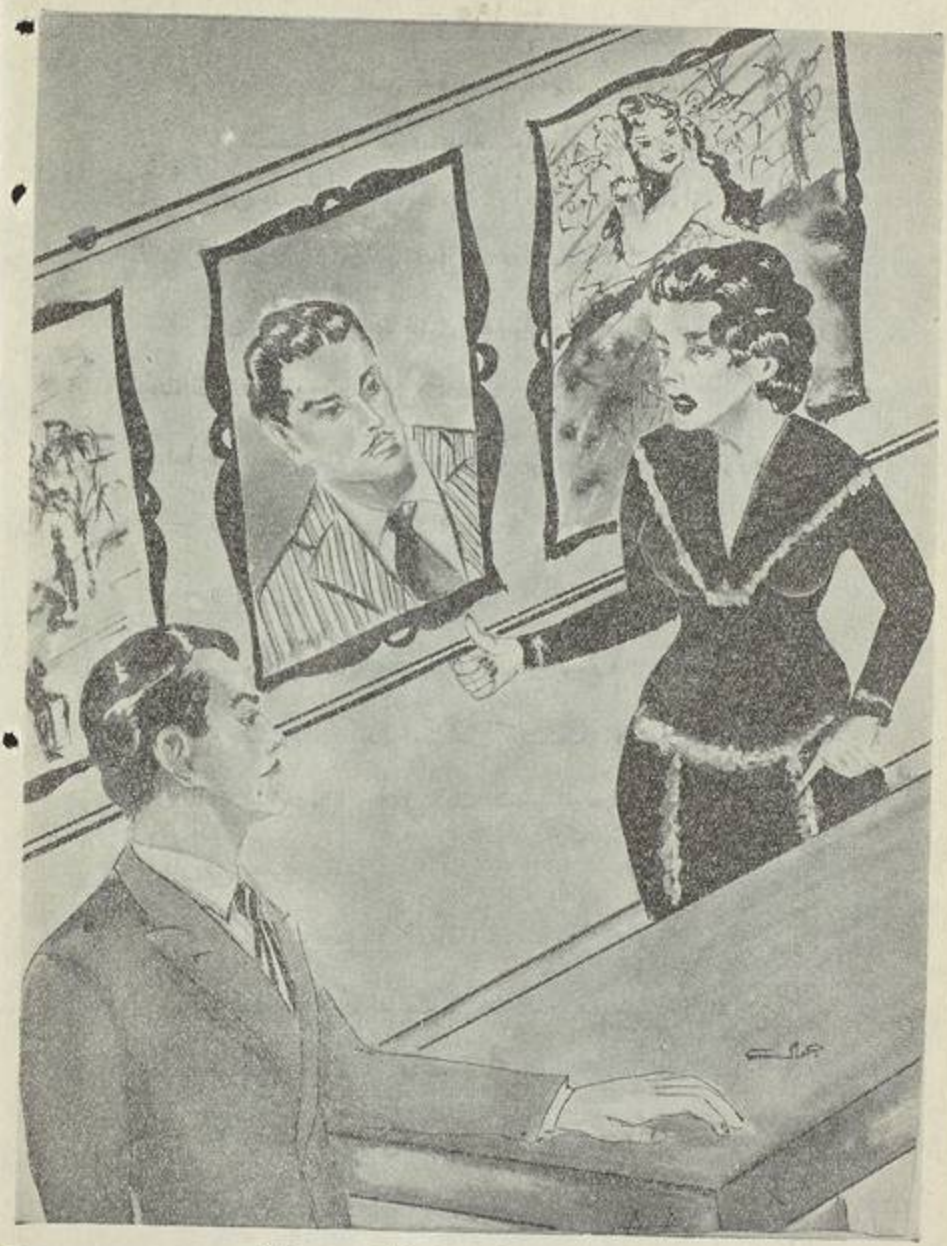

فترنحت .. وقد ظنت بنفسها دوارا هيا لها صورتين توأمتين ...

وضحك . . ونظرت إليه طويلا . . وعيناها حالمتان . . وابتسمت . . واتصل بينهما حديث .

ورأته . . وحدثته . . وسعدت بصحبته السبعة الأيام التى دامها المعرض . ولما وضعت كلتا يديها بين يديه تودعه الليلة الأخيرة . . وشفتها أسيرة بين أسنانها . . لا تجرؤ على مقابلة نظرته ، ضغط يديها وهمس قائلا:

— « سأراك ثانية . . لابد . . تعالى إلىّ . . عندى « ستوديو » خاص بى . حجرة فى السطح . . على قد الحال . . حجرة فنان بوهيمى . . لكنك ستجدينى هناك . . أنا ولوحاتى . هيه ؟ »

وذهبت إليه . ودارت ببصرها حولها . . لم يكن فى ذلك الحىّ مكان واحد يصلح للجلوس ... كل شىء معفر . . الأريكة البلدية . . والكرسيان . . والمنضدة « الزنك » أم الثلاث أرجل . . لكنها أحبت كل ركن . . كل لوحة . . كل كوب مكسور . . وآنية مشدوخة لقد لمستها يده . . أو شفتاه . . أو تعثرت فيها قدمه . . أحبت كل شىء يخصه . . ظروفه لا تهم ... هو . . هو . !

وعند ما أغلق الباب خلفها . . ونفخ المصباح . . وتحسس طريقه إليها . واحتواها بين ذراعيه فى صمت . . ثم راح يبحث بشفتيه عن شفتيها . . غلبتها النيران . . أعماها الدخان . . وتسرب إلى رأسها يملأه . . فاختنق عقلها وتخدر . . راح فى غيبوبة . . وتركها وشأنها . .

جسداً بلا تفكير .. بلا توازن .. جسداً فتياً .. متعافيا .. بلا أوتاد تشده إلى الأرض .. دنيا الواقع . فجمح .. يمزع آخر خيط واه يربطه بالحكمة .

فشعرت « فتنة » بخفة وطيش لم تشعر بهما قط من قبل . شعرت بجسدها فرحان بالخلاص . . يسبح فى الهواء مرة على بطنه . . ومرة على ظهره . . ثم يتقلب على جنبيه نشوان . . طلقاً . . حراً . .

وشعر بذلك « مندور » وهى بين يديه فى الظلام . . لمس التغيير الذى طرأ عليها . . هبط عليها . . يغلفها . . ويتسلل إلى دمائها .

فجذبها يطويها طياً فى أحضانه باعتداد وثقة .

وفى اللحظة الحاسمة . . لحظة الجنون . . انطلق فجأة بتطفل . . كالنغم النشاز . . يرن فى دماغها الذى يملأه فراغ . . خدر . . انطلق رنين كجرس « المنبه » . . رنين رفيع . حاد مستميت دوى صداه فى أذنيها . . وتضخم . . وتضخم . .

ففتحت عينيها . . وهبت جالسة كأيام الدراسة عند ما كانت توقظها ساعتها الرنانة متأخرة . وتلفتت حواليها بدهشة وعجب ... تمرر ظهر يدها على جبهتها . . ماذا . . ماذا كان سيحدث ؟ أين . . أين أنا ؟ من . . من هذا المتمدد جنبى يرمينى بنظرات حانية ؟ آه ... حبيبى !

فأخفت وجهها براحتيها كأن عن رعب وجزع من رؤية وحشين من جبابرة القوى يلتحمان داخلها فى قتال مروع : نشأتها المتزمتة

المتغلغلة بجذور خبيثة راسخة فى أعماقها . . وغرائزها . . غرائزها البكر المتفجرة فتوة تود أن تثأر من قسوة أغلالها . . من طول ذلها وعبوديتها .

واشتد الصراع . . وعنف . . وترنحت هى . . ساحة قتال . . وتمايلت تهتز . . وترتجف .

فمد « مندور » ذراعه ولفه حول كتفها يرفق . . بهدوء . . يربت عليه . فدست رأسها تحت إبطه تسرى فيها سكينة . . وقد ذابت كل متاعبها . . كل حرمانها . . حيرتها . . وحدتها مع عطفه . وأطلقت تنهيدة من أعماقها ، ومالت عليه تمس شعره الذى تحبه بشفتيها فى خفة كأنه أخوها . . صديقها .

فابتسم لها « مندور » بحنان وفهم ولوّح لها بيده مودعاً وهو فى مكانه لم يتحرك .

فقامت فى دعة وسكون . . وخرجت .

عادت إلى بيتها سائرة على قدميها . وفى حجرتها راحت تقلب ثيابها . . تنبش بينها . . تنتق ... ميتة المشاعر ... كأنها تنتق كفنها . . ثم سحبت قميصاً بنفسجياً . . هفهافاً . . عارياً . . يعجب زوجها لبسته وارتمت على سريرها تنتظره ودموعها تسيل . . ومرة أخرى بدنها كيس قطن لا يحس ولا ينتفض .

لا . . لن تخونه . . زوجها . . أبداً . . أبداً . . جسدها ملك لزوجها . فليكن . أما عواطفها . . قلبها . . انتفاضها . . فملكها هى . . هى ! لا . . لا . . لن تخونه فى ملكه . . لكنها . . ولمعت عيناها فى الظلام تصر على أسنانها . . لكنها ستخونه . . ستخونه خيانة فظيعة . . بشعة . . فى نظرها . . خيانة دنيئة . . ستهوى بآدميتها إلى الحضيض . . لكنها خيانة سترضى الكل . . المجتمع . . والمبادىء . . والتقاليد . والأسرة . . . حتى الزوج :

ستغمض عينها وهى فى أحضانه وتتخيله . . . حبيبها .

فهرس

صفحة

١ — إنه الحب ٧

٢ — ليالى القمر ٢٢

٣ — خيط العنكبوت ٣٦

٤ — الدنيا ليل ٥٧

٥ — أنت . . أنت دائى ! ٧٢

٦ — أيام زمان ٩١

٧ — أم الأولاد ١٠١

٨ — خادم المسجد ١١٦

٩ — فى العلالى ١٣٦

١٠ — وعادت الشاردة ١٥١

١١ — السّراب . . ! ١٦٨

١٢ — أيّها السعادة . . ! ١٨٤

مؤلفات جاذبية صدقى

المطبوع :

مملكة الله : مجموعة قصصية

ريبب الطيور : قصة طويلة للأطفال

حكايات عم سَنَد البواب : مجموعة قصصية للأطفال

إنه الحب . . : مجموعة قصصية

تحت الطبع :

جميلة : قصة طويلة من الريف

سكان العمارة : مسرحية كوميدية اجتماعية

ستار ياليل . . : مجموعة قصصية

دار الكتاب العربي بمصر

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 072236589